ياسين رفاعية

مصرع أماس

رواية

مدونة أبو عبدو

مصرع الماس

رواية

جميع الحقوق محفوظة
الاهلية للنشر والتوزيع
بيروت ١٩٨١

بيروت . الحمراء . بناية الدورادو . ص . ب ١١٣٥٤٣٣ هاتف ٣٥٤١٥٦/٣٥٤١٥٧

الغلاف
للفنان نبيل أبو حمد (لندن)

خطوط
للفنان بهيج عنداري
وللفنان أسامة حديب

إلى
بسام ولينا

- «مصرع الماس» نشرت قصة أولاً وكانت أحداثها أحق أن تذهب في قصة طويلة، وهكذا كان

القسم الأوّل

كان ألماس بعبع الطفولة، وكنا نهدد به، نحن أطفال حي العقيبة بدمشق، على مدار سنوات طويلة من طفولتنا، وكان لفرط خوفنا منه، يبدو لنا عملاقاً يطال النجوم، ويأكل في الوجبة الواحدة جملاً، وفي أبسط الأحوال خروفاً محشياً، وكنا نتمنى أن نصبح مثله عندما نكبر، يخافنا الناس، ونضع في أوساطنا، مثله، خنجراً، ومسدساً، ونعبر المقبرة في الليل، من دون أن يصيبنا الهلع.

وكنت أنا بشكل خاص، مولعاً به، رغم خوفي الدائم منه، إذ كان بيتنا ملاصقاً للمقبرة، ولغرفة نومنا نافذة تطل مباشرة على ساحتها. وما إن يحين الليل، حتى ترخي أمي ستائر النوافذ، وتمنعني من الاقتراب منها، أو الإطلال عبرها. ذلك أن ألماس يذرع المقبرة

في الليل جيئة وذهاباً، أو يأكل ويشرب مع أرواح الموتى. وربما يجلس تحت جذع شجرة الجوز الضخمة، ويتحاور مع الجان والعفاريت، وكثيراً ما روت أمي عنه أخباراً نقلتها عن أبي، منها أن ألماس التقى ذات يوم بطفل صغير يبكي في المقبرة، فاقترب منه يسأله عن سبب بكائه، ثم عرف أنه ضائع عن أمه، وكان يود أن يذهب به إلى المخفر، لولا أن الطفل صاح بألماس: «أنا عفريت يا عمي... أنا عفريت». عندئذٍ نظر ألماس إلى قدمي الطفل، فلاحظ أنهما تشبهان قدمي غزال.. فسأله عن أمه أين هي، وأين تركته. قال الطفل العفريت: «ما زالت في المقبرة».

شرع ألماس ينادي على العفريتة أم العفريت، كأن الأمر عادي جداً، إلى أن ظهرت بين القبور بوجهها المرعب وعنقها المشرئب كعنق زرافة... فتقدمت من ألماس وأخذت طفلها من بين يديه دون أن تقول كلمة.

وتعقب أمي على القصة بقولها:

- ألماس رجل شجاع. حتى العفريتة لم تستطع أن تؤذيه لشدة تهيبها منه.

ومع الأيام، نما ألماس في مخيلتنا، كما ينمو الشجر وسط الغابات. وكثيراً ما كان رفاقي يحدثونني عن قصصه التي سمعوها عنه من أمهاتهم.

قال لي أحدهم مرة: حدثني أبي قال: هاجمت حينا ذات ليلة دورية من رجال الأمن يرافقها ضابط فرنسي، بحثاً عن ألماس المتهم بقضايا سلب وتهديد. وعندما بدأ الضابط التحقيق مع سكان الحي، تسرب أحدهم إلى المقبرة وأخبر ألماس، فسخر ألماس ضاحكاً، وقال له: إن كانوا يتجرأون فليدخلوا المقبرة.

عرف الضابط الفرنسي أن ألماس موجود في المقبرة، فصمم على القاء القبض عليه، وطلب دعمًا من قوى الأمن، فحضر على الفور المزيد من أفرادها، وحوصرت المقبرة من معظم جهاتها إلا الجهة المفتوحة على البراري لصعوبة حصارها في هذا الليل المدلهم.

وما إن شرع الجنود بقيادة الضابط الأشقر دخول المقبرة، حتى ارتدوا إلى الوراء خائفين. صاح بهم الضابط مؤنباً. لكن جندياً من القوة أشار بيده إلى أطراف المقبرة البعيدة، وما إن التفت الضابط حيث أشار الجندي، حتى رأى بأم عينه عشرات من الأشباح البيضاء تتحرك هبوطاً ونزولاً بين الأشجار المحيطة

بالمقبرة. صاح مبهوتاً: ما هذا... يا الهي... ماذا أشاهد؟ صاح أحد سكان الحي: إنها العفاريت... العفاريت يا سيدي... عفاريت العم ألماس، إنها تحميه، تدافع عنه، ولن تسمح لكم بالاقتراب من المقبرة.

وقع الضابط في حيرة شديدة. ماذا يفعل؟، وهو، عمره ما رأى أشباحاً، ولا أشكالاً، ولا عفاريت من هذا النوع. ولا يعرف، أبداً، أن فوق الأرض عفاريت.

حزم أمره ثانية، وأمر القوة أن تتقدم، إلا أن أفرادها، هذه المرة، كانوا أشد تصميمًا على عدم خوض هذه المغامرة، فمعظمهم يريدون العودة إلى أسرهم وأولادهم، ولن يخاطروا، خصوصاً، مع العفاريت التي لن تؤثر فيها طلقات الرصاص.

وأخيراً، اقترح مساعد الضابط تأجيل الهجوم على المقبرة حتى الصباح، وفي هذه الأثناء استطاع ألماس بخفة النمس أن يتسلل من المقبرة إلى البراري الواسعة يسابق بساقيه الطويلين الريح.

شاعت قصة العفاريت في الحي، حتى بات الناس تخشى ألماس نفسه.

وذات يوم، وهو في مقهى الحي، يجلس مدخناً نارجيلته، وقد ركز طربوشه الخمري على جبينه حتى حاجبيه، روى لحشد من الناس حوله قصة العفاريت. قال لهم: يا شباب، ألا تعرفون أن الجان والعفاريت نزلوا إلى تحت الأرض منذ جاء سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام برسالة الهدى لكل الناس، وهو، بيديه الطاهرتين، أقفل عليهم قشرة الأرض؟ فما بالكم قد صدقتم حكاية العفاريت، وأنا صانعها. اسمعوا يا شباب. فاقترب منه الجمع أكثر، والتصقت به العيون مشدوهة، تريد أن تعرف المزيد عن حكايا هذا الرجل الغريب، قال ألماس: عندما عرفت أن الضابط الفرنسي سوف يحاول اقتحام المقبرة، وكنت أعددت لمثل هذا اليوم صلباناً من أغصان الشجر، وربطتها جميعها بخيوط تشبه خيوط كراكوز وعواظ (خيال الظل) التي يلعب بها أمامكم محرك هذه الدمى مساء كل يوم وراء شاشته الصغيرة... وهيأت عدة عباءات بيضاء، خبأتها داخل المقبرة. وما إن عرفت بنبأ الهجوم على المقبرة، حتى أسرعت وألبست تلك الصلبان عباءاتها البيضاء،

ورحت أحرك خيوطها مجتمعة بيدي، وأنا مختفٍ خلف شجرة الجوز الضخمة، فبدت عن بعد، وتحت ضوء القمر الشاحب، كأنها أشباح تتحرك بين الفضاء والأرض متراقصة بين الريح والشجر، فخيّل لذلك الجبان الفرنسي وصحبه أنهم فعلاً أمام مجموعة من العفاريت.

أنهى ألماس قصته، ثم ضحك مقهقهاً حتى كاد طربوشه الخمري يقع من على رأسه، وعاد إلى قرقرة نرجيلته بين شهقات الرجال حوله من متعجب ومستغرب ومعجب.

ولم تكن أمهاتنا فقط يتبارين في رواية القصص الغريبة عنه، بل نحن، في ذلك الوقت، كل منا، صار يخترع من مخيلته قصة ما، رغبة في التباهي بمعرفة الرجل وحكاياه وخفاياه. وكان كل منا يحرص على وصف شكله وطوله وعرضه. حتى أن أحد رفاقي قال: إنه غافل أمه مرة ونظر عبر النافذة نحو المقبرة، ليلمح رجلاً طويلاً يتكىء بأصابعه على رأس شجرة الجوز. كانت عيناه تبرقان في الظلمة كأن فيهما شرراً من نار. أما شارباه، فكانا معقوفين إلى الأعلى. وأراد هذا الرفيق أن يوهمنا بشجاعته، فأكد لنا أنه ظل ملتصقاً

بزجاج النافذة يرقب هذا الرجل الهائل، إلى أن تعب، فتسلل إلى فراشه لينام، لكن ألماس لم يغادر مخيلته فرآه في أحلامه، تارة يمتطي حصاناً أبيض طائراً له جناحان أبيضان يفردهما في الفضاء ويخطو خطوات واسعة فوق سطوح البيوت.

بل روت لنا مرة إحدى أمهاتنا، أن ألماس صديق الجان والعفاريت كانوا يمازحونه ويمازحهم... فذات يوم كان ألماس على موعد مع عجان الفرن أبو الدراويش لشرب الشاي عنده في البيت في منتصف الليل قبل أن يذهب أبو الدراويش إلى الفرن ليعجن الطحين... خرج ألماس من المقبرة نحو أطراف البرية حيث يقيم أبو الدراويش، فانتبه إلى حمار أبيض مربوط إلى باب أحد البيوت. فكر ألماس أن صاحب الحمار في مثل هذا الوقت لا بد أن يكون نائمًا، وسرعان ما فك رسن الحمار قائلاً لنفسه سأمتطيه إلى بيت أبو الدراويش ثم أعيده إلى مكانه، ولن يزعج صاحبه بالتأكيد. هكذا، امتطى ألماس ظهر الحمار ومضى به إلى بيت أبو الدراويش، وبعد أن شربا الشاي معاً وتسامرا... قال ألماس لأبو الدراويش، هيا نهبط، لدي حمار أبيض وقوي، سوف نمتطيه معاً أوصلك إلى الفرن ثم أعود به إلى صاحبه.

عندما نزلا، ألماس وصاحبه، حتى باب البيت، لم يجدا الحمار. لم يستغرب ألماس، قال لأبو الدراويش، ربما صاحبه بحث عنه ووجده هنا، فعاد به... وبعد خطوات، وهما ماشيان نحو الفرن، تعثرت قدم ألماس بقط أبيض جميل وافر الفرو نظيف... فانحنى ألماس إلى الأرض والتقط القط ثم وضعه على كتفه وراح يلامس فروه الأبيض الناعم براحته متوددًا. وأبو الدراويش يمدح جمال القط ونظافته... لكن ما إن وصلا معًا بالقرب من البيت الذي كان الحمار الأبيض مربوطًا ببابه، حتى اقترب القط من أذن ألماس وهمس: في الذهاب إلى بيت أبو الدراويش ركبتني، وفي العودة ركبتك أنا... فها قد تعادلنا. ثم اختفى القط... ولم يرتعب ألماس، بل راح يضحك طويلًا. أما أبو الدراويش الذي يقسم بأمه وأبيه أنه سمع حديث القط... فقد ترك ألماس مهرولًا نحو الفرن وهو يصرخ مرتعبًا خائفًا.

كثيرة القصص التي أحاطت بالرجل. وأذكر، إننا كنا جميعًا، نتناقل تهديدات أمهاتنا لنا، فهو قد يخطف أحدنا إذا تأخر في الذهاب مساء إلى البيت، أو هرب من المدرسة، أو تكاسل في دروسه. وكانت هذه

التهديدات تفعل فعلها بنا، فكنا نرضخ لمشيئة ذوينا في كثير من الأمور.

استيقظ الحي ذات يوم على حركة غير عادية.

جمـوع غفيـرة هنـا وهنـاك، وهمس خـائف، وحوارات، وأحياناً ضجيج غير مفهوم.

ماذا في الأمر؟.

وُجدت حسنية البلطجي مقتولة وراء باب بيتها، مذبوحة من الوريد إلى الوريد، ودمها سائح فوق بلاط المنزل، أما زوجها المشلول منذ عشر سنوات، فقد وجدوه ينتحب كالأولاد، وهو فوق كرسيه الخشبي في الغرفة الوسطى من الدار.

استغرب سكان الحي ما حدث، قال أبو فهد مختار الحارة: مسكينة حسنية، كانت فقيرة، لا تملك قرشاً، ولولا ألماس لماتت وزوجها من الجوع.

لولا ألماس!.

ماذا يفعل ألماس؟.

الخباز والبقال واللحام، وبائع الملابس المستعملة، وبائع الكاز، وبائع الشمندر والذرة المسلوقة، وبائع الخضار، وبائع الكعك. هؤلاء وغيرهم جميعاً يعرفون أن ألماس يأخذ منهم خوة لحسنية البلطجي. وما كان أحدهم يمتنع. كانوا يعرفون أن زوجها أبو الود أصيب برصاصة في ظهره عندما كانت الثورة السورية مشتعلة ضد الاحتلال الفرنسي. كان أبو الود أحد مقاتلي الثورة، وكان يومها في عز شبابه ورجولته، قاتل الجنود الفرنسيين حتى أعياهم، وهو يعرف حسن الخراط ومحمد الاشمر كما يعرف وجهه في المرآة. وعندما أُصيب ووقع في أسر الفرنسيين عُذب عذاباً شديداً حتى كاد يموت بين أيدي جلاديه، ولكنه لم يبح عن أحد من رفاقه. كان قد عولج من الاصابة، إلا أنه لم ينج من الشلل. ومنذ ذلك الحين بات أبو الود دون عون. وذات يوم أبدى رغبته لألماس بأن يتخذ لنفسه مكاناً على باب مسجد التوبة يمد يده ويتسول ليسد رمقه ورمق حسنية من جوع. لم يسمح له ألماس. عيب، واحد من أشرف الرجال، قاتل الأعداء حتى سقط، ويتسول! معاذ الله. وحق هذين الشاربين ستظل محافظاً

على كرامتك. أنت بطل. أنت قاتلت من أجل الوطن. ونسمح لك أن تتسول. عيب، ما عاد في الحي رجال. لا والله.

وبعد أيام، أصبح ألماس يحمل إلى هذين الزوجين مؤونتهما اليومية من طعام، ويحمل لهما بين حين وآخر لباساً وأدوية، ويجر الحلاق من سترته البيضاء كي يشذب شعر أبو الود.

ظل ألماس وفياً على هذه العادة طوال السنوات العشر الماضية دون توقف.

كان ألماس يغيب عن الحي أياماً طوالاً، عندما ينقل له الصحاب المنبثون هنا وهناك أن قوى الأمن ستداهم الحي لإلقاء القبض عليه. لكنه لم ينس أبو الود لحظة واحدة. كان يوصي الجزار أن يرسل له ما تيسر، وكذلك البقال والخباز وبائع الخضار. كان الغيارى من ألماس يقولون: هذه خوة. إلا أن أبو فهد وشيخ المسجد وأبو العز صاحب المقهى ومعظم سكان الحي، يقولون: لا... هذا خير... خير ما يفعله ألماس.

وألماس ينفخ في أهل الحي الحماس دائمًا من أجل

أبو الود: هذا رجل قاتل من أجل البلد. لم يخن. لم يهن. لم يبع نفسه للفرنسيين. كان الفرنسيون وعدوه أن يرسلوه إلى باريس للعلاج إذا هو أخبرهم عن الأمكنة التي يتواجد فيها قادة الثورة. إلا أنه كان يرفض. وكان يصر أنه لا يعرف شيئاً. من كان يمدك بالمال؟ لا أعرف. من كان يمدك بالذخيرة؟ لا أعرف. من كان يدربك على استعمال السلاح؟ لا أعرف. كم قتلت من جنودنا؟ لم أقتل أحداً... نحن رأيناك من وراء أكياس الرمل كيف صوبت بندقيتك إلى صدر ضابطنا الكولونيل وأرديته قتيلاً. أنا لم أقتل أحداً. تعال أيها السيرجنت شيف اقتلع عين هذا الارهابي الذي صوب رصاصة إلى صدر الكولونيل. اقترب الرقيب أول ووضع إصبعه في عين أبو الود. إلا أن أبو الود ظل صامداً صامداً بخشوع. عاد المحقّق يسأله: أنت مجنون... عودتك معافى أو اقتلاع عينك. أبو الود يصيح: أنا لم أقتل أحداً منكم. إلا أنني حملت السلاح دفاعاً عن الوطن، عن بيتي، وأسرتي. يصيح المحقق في وجهه: إخرس أيها الأبله. نحن جئنا إليكم نعلمكم الحياة. نعلمكم المدنية. أنتم وحوش، أغبياء. لا رحمة في قلوبكم. كيف سمحت لنفسك أن تقتل ضابطنا

الكولونيل. بعده عريس يا وقح. يا رذيل. بعده شاب لم يتنعم بالحياة.

كان أبو الود ينظر إلى المحقق القادم من بيروت، وهو يحدثه بالعربية الدارجة نظرة سخرية، لم يكن المحقق يعرف معناها. إلا أن الضابط الفرنسي الأعور وحده كان يعرف ماذا يعتمل في قلب هذا الرجل المقعد.

طال عذاب أبو الود، وطال سجنه، إلا أنه ظل صامداً كالجبل، صامداً صخرة من حجر صوان، ثم بودل أبو الود بعشرة جنود أسرى.

وتوقفت الثورة. وبعد مرور وقت تشتت الثوار، ونسي الجميع أبو الود إلا ألماس.

فمن قتل حسنية البلطجي؟.

حامت الشبهات حول أبو عجاج. فهم يعرفون أن أبو عجاج كان يحمل بين الحين والحين الأغراض إلى بيت أبو الود بتكليف من ألماس... وهو، بعد الحادث، اختفى.

لكن، لماذا يقتل أبو عجاج حسنية البلطجي؟.

ظل الحي في دوامة، إلى أن انتهى التحقيق،

وتبين للمحقق أن ألماس هو القاتل، جميع القرائن تنبىء أن ألماس هو القاتل.

استغرب الجميع... لماذا يقتل ألماس المرأة التي حماها من الجوع والتشرد طوال عشر سنوات؟.

لم يصدق سكان الحي، قال أبو فهد: كلما عجزت السلطات عن معرفة الحقيقة الصقت التهمة بألماس.

لكن اختفاء ألماس عزز الشكوك أنه هو الفاعل. فما إن مرت أيام أيضاً، حتى استفاق الحي على جريمة أخرى. مقتل أبو عجاج نفسه. وجد على حافة النهر مطعوناً بالخنجر عدة طعنات في جسده. كان الرجل قد قاوم، بدليل أنهم وجدوا بين يديه خنجره، وعلى حده آثار من الدماء. وبعد تحقيق طويل عرف أن الرجل القتيل صارع ألماس نفسه، حتى قتله ألماس.

ماذا في الأمر؟.

أبو عجاج خلّ ألماس الوفي، كان يدافع عنه، يضع حياته فداء له، يرقب منافذ الحي عندما يكون ألماس راغباً بتدخين نارجيلة في مقهى أبو العز حتى يحذره إذا جاء رجل أمن أو دورية إلى الحي.

لم يستطع أحد أن يربط بين مقتل حسنية ومقتل أبو عجاج. إلا أن القرائن كلها أكدت أن ألماس هو قاتل الطرفين.

ذات يوم، مرّ بائع الحطب بالحي، ونادى على أبو العز، وهمس في أذنيه بضع كلمات.

ولم يلبث أبو العز أن وضع عباءته السوداء على كتفيه واتجه صوب البرية فرحاً، باحثاً بعينيه المتوهجتين عن الرجل الذي أحب. والذي من فمه الآن، سوف يعرف حقيقة ما جرى.

قطع البساتين جرياً بين الممرات الترابية الضيقة، حتى وصل ملتقى النهرين. فرآه، على حافة النهر، متكئاً على عصا أطول منه، مشدود القامة كالرمح، طربوشه الخمري بالكاد يلامس حاجبيه الكثيفين، إنه ألماس، بسمرته الداكنة، وشاربيه الأسودين المعقوفين إلى أعلى. وبعينيه المزنرتين بكحل أسود، وكان خنجره بارزاً من شملته المزركشة التي تلف وسطه، ويده اليمنى تداعب شاربيه تارة، وتارة تلامس مقبض الخنجر الكبير.

اقترب أبو العز من الرجل متلهفاً شديد الوجيب، فيه خشية غير خائفة، وفيه تهيب من الموقف.

أخذه ألماس إلى صدره، ثم ربت بيده اليمنى على ظهره هامساً بكلمات واضحة وبصوت متماسك:

- أبو العز اشتقنا. كيف الحال... كيف الشباب... كيف أهل الحي؟.

- والله اشتقنا أكثر يا ألماس... طالت غيبتك يا رجل... الحي بدونك شمس غاربة.

- الله يرضى عليك يا أبو العز، ويخليك.

والتفت ألماس صوب المدى الأخضر من البساتين والأشجار وتقدم ببطء نحو شجرة دراق ضخمة، وتبعه أبو العز بخطوات لا تكاد تلامس أطراف الحشائش النابتة حديثاً من بطن الأرض.

جلس ألماس تحت ظل الشجرة، فيما جلس أبو العز قبالته. قال ألماس:

- ما هي الأخبار؟

- والله يقولون أنك قتلت حسنية البلطجي، وقتلت أبو عجاج. أجاب ألماس بهدوء:

- أنا قتلت حسنية... وأنا قتلت أبو عجاج.

تهيّب أبو العز أن يسأله لماذا؟ ظل صامتاً ينظر في وجه الرجل الصارم المشدود تحت ذقن غير خشنة من الشعر الأسود يتخللها بعض شعيرات بيض.

ظل ألماس صامتاً للحظات، أثناء ذلك أخرج من جيب سرواله علبة تبغ بحجم كف اليد، وفتحها، ولفّ سيكارة بسرعة بيد واحدة، ثم أعطاها إلى أبو العز، وسرعان ما لف لنفسه سيكارة أخرى. تقدّم أبو العز وأشعل سيكارة ألماس من قداحة فتيل وأشعل بالتالي سيكارته.

مج الرجلان سيكارتيهما مراراً قبل أن ينظرا كل منهما في وجه الآخر.

حدقا إلى بعضهما بعضاً بصمت، وظل أبو العز يتهيب السؤال، ألماس الثابت فوق كتفيه كقمة جبل. كان أبو العز يدرك ما يعتمل في صدر الرجل، ويدرك أي سر رهيب سيبوح به الآن. سر، لا بد أن يكون رهيباً ومدهشاً. هو، إذن، قاتل حسنية، وقاتل خله الوفي أبو عجاج... أليس وراء ذلك سراً رهيباً؟...

لكن أبو العز لم يتجرأ أن يبدأ بالسؤال... وربما، طال

صمت الرجلين، كلاهما، ينتظر، ألماس يتردد في الكلام، وأبو العز يتردد في السؤال. وأخيراً، خرجت الكلمات من فم ألماس بصعوبة:

حسنية كانت تخون أبو الود مع أبو عجاج يا أبو العز.

فغر أبو العز فمه دهشة:

- تخونه مع أبو عجاج!!

- أي والله... تصور... أبو الود الذي ضحى بنفسه من أجل حماية البلد، من أجل حماية عرضه، تخونه مع أبو عجاج... أبو عجاج الذي كنت أعتقد أنه ملائكة، وكنت أئتمنه على كل شيء، وأحمّله ما تيسّر من الأغراض إلى بيت أبو الود، كان يستغل الفرصة، ويزيّن لها الخيانة. تصور... من كان يفكر أن هذا سوف يحدث في الحي؟ من كان يفكر أن أبو عجاج يفعل هذه الفعلة... وأن حسنية يخطر في بالها طعن أبو الود بالظهر فوق ما طُعن... لذلك اتخذت قراري وحزمت أمري على قتلهما.

صمت ألماس، فيما كان أبو العز غير مصدق ما يسمع... يهز برأسه يميناً ويساراً ويهمس لا حول ولا قوة إلا بالله... لا حول ولا قوة إلا بالله...

عاد ألماس يقول:

- ألا ترى يا أبو العز أن حكمي كان عادلاً؟

فكر أبو العز طويلاً، هو فيما بعد، تحدث عن هذا اللقاء، وكان قد قال لألماس:

- نِعم ما فعلت يا ألماس، ولكن من سوف يدفع الثمن غيرك أنت... فالشرطة تعرف أنك القاتل، وهم يداهمون الحي بين يوم وآخر بحثاً عنك... أنت تعرف أنك لو وقفت بين أيديهم مصيرك حبل المشنقة.

قهقه ألماس:

- من هذه الناحية لا تخف. ألماس له الأرض الواسعة، ويستطيع أن يضيعهم ويختفي دائمًا... لكن يهمني ما استدعيتك لأجله... يجب أن يعرف سكان الحي ما حدث... وأتوقع منك أن تروي للجميع الأسباب التي دفعتني إلى قتل حسنية وأبو عجاج. الذي أرجوه، إياكم أن تقطعوا أبو الود من المساعدات. أنت، من الآن وصاعداً، ستقوم بهذه المهمة... كما يجب أن تخبره أن حسنية ذبحت لأنها كانت تخونه. سيكون وقع الخبر عليه قاسياً، إلا أنه رجل. رجل شجاع، وعلينا جميعاً أن نحافظ عليه... ألا تذكر كيف قاتل الفرنسيين وكيف انتصر عليهم بصموده وثباته

وعدم خيانته لرفاقه؟... يجب أن لا تمس كرامة أبو الود بأي أذى.

قال أبو العز:

- ما أجمل أن أسمع منك هذا الكلام... أنت رجل كبير يا ألماس...

- يا شيخ الله كبير. لا أحد كبير بين كل البشر.

- ولكن... هل لي أن أسألك كيف عرفت بخيانة حسنية مع أبو عجاج؟.

- مصادفة... كنت أزمع على الانتقال إلى «التل»* لبضعة أيام بدعوة من أبو صادق النحات. أنت تعرفه، هو الذي أعاد بناء جدار مسجد التوبة بعد إصابته بقذيفة أيام الثورة. وتم الاتفاق بيني وبينه على الموعد. ويوم كان علي الذهاب إليه، أرسلت مع أبو عجاج مؤونة ذلك اليوم إلى بيت أبو الود. وفي الطريق تذكرت أنني لم أرسل لهم اللحم. مررت بالقصّاب وأخذت شريحة غنم. وقلت في نفسي أمر أنا على المنزل وأعطيهم اللحم. كان أبو عجاج قد سبقني. قلت في نفسي سأراه الآن في طريقي. وصلت إلى بيت أبو الود

(*) التل، بلدة قرب دمشق.

ولم أر أبو عجاج، طرقت الباب، فلم تفتح حسنية، سمعت صوتاً من الداخل يقول: مين... عرفت صوت أبو الود، قلت صائحاً: أنا ألماس يا أبو الود... سمعت أبو الود ينادي: إفتحي يا حسنية لألماس... إلا أن أحداً لم يفتح الباب. لعب الفار بعبي. صحت بأبو الود قائلاً، لا بأس سأعود فيما بعد، تلطيت وراء حائط وانتظرت، كان الليل قد أرخى ستائره. وبصيص القناديل بدأ يتسرب من النوافذ. وأنا واقف في مكاني أصلي للرب أن أكون مخطئاً في هواجسي. وأخيراً سمعت جلبة وحركة. إقتربت بسرعة من باب البيت، وأرهفت السمع... وكم كانت صدمة لي عندما سمعت حسنية تهمس: إن شاء الله يكون ألماس ابتعد ولا يعرف أنك كنت في البيت. ماذا قال أبو عجاج؟ قال لها: ألماس الآن في طريقه إلى التل... وقالت حسنية: طيب... سمعت أبو الود ينادي أن أفتح لألماس... قال لها أبو عجاج: غلط... غلط، يمكن كان يتخيل ذلك.

كان الباب يفتح، وسرعان ما وضعت قدمي في المدخل، واندفعت، نفر أبو عجاج من بين يدي كالزئبق. أما حسنية فقد شهقت للمفاجأة. لم أتردد،

قبضت على خصلة من شعرها وضغطت على رأسها حتى التصقت ذقنها بركبتي، وسرعان ما استللت خنجري وخرطته في عنقها وحززتها كما تحز السكين البطيخ. تركتها وهي تلعبط كدجاجة، وحتى أتأكد، عدوت إلى غرفة النوم، وكان واضحاً فيها كل آثار خيانتها، خرجت مرتاح الضمير أبحث عن أبو عجاج. كان المجنون يتصور أنه سيزمط من يدي. لكنني كنت أعرف كل مكان قد يذهب إليه، وترصدته، وسألت عنه كل الصحاب، ثم عرفت أنه مختبىء عند أخته في طرف الجبل بالقرب من الشيخ محيى الدين. أخيراً، أمسكت به، واعترف. وكان علي أن ألحقه بحسنية. المجنون قاوم. سحب خنجره وهجم عليّ، جرحني جرحاً بسيطاً في يدي، لكنني لويت يده. وأنهيته.

صمت ألماس، كان أبو العز يلهث في هذه اللحظات، كأنه هو الذي يروي ما حدث، وكأن ما حدث هو الذي قام به.

عاد ألماس إلى علبة تبغه التي أخرجها من جيب سرواله، ولفّ سيكارة أعطاها لأبو العز. ولف واحدة أخرى له. أسرع أبو العز وأشعل سيكارة ألماس. وقد

بدت يده ترتجف بحدة. ابتسم، ثم صاح بأبو العز: إثبت يا رجل... إثبت، إصبعتان عائبتان وقطعناهما. لن أسمح أن يحدث مثل ذلك في الحي، حيّنا نظيف، حي رجال يا أبو العز. والسرطان يجب قطعه قبل أن يستفحل.

٣

فيما بعد، طالت غيبة ألماس عن الحي، واشتدت مداهمات الشرطة للحي بحثاً عنه دون جدوى. سرت إشاعات أن ألماس مات في مكان ما، فقيل مرة في بغداد، ومرة في دير الزور، ومرة في حلب... بل أن أبو العز أكد أن ألماس حي، ولكن في بغداد، هناك عند صديق له يعرفه، تاجر تمر، يقضي الصيف في الزبداني، ويتردد على دمشق كثيراً. إلا أن هناك من ادعى أنه شاهد ألماس بأم عينه في أبي الشامات على الحدود العراقية السورية. وقيل أن أبو دياب روى أن جنود الهجانة وجدوا في الصحراء جثة رجل طويل القامة، ذي وجه صارم، وشاربين معقوفين إلى أعلى، إلى جانب طربوش خمري اللون قاتم... إنها صفات ألماس من دون شك... وقيل أن الذئاب هاجمت ألماس في تلك الصحراء المغبرة الشاسعة فقتل بخنجره عدداً كبيراً منها

قبل أن تقضي عليه. ويؤكد أبو دياب أن الخنجر كان موجوداً بين بقايا ألماس... لكن الشرطة لم تأبه لهذه الأقاويل. ظلت تداهم الحي بين فترة وأخرى، وتهاجم المقبرة نهاراً بحثاً عن الرجل، ثم تعود خائبة.

مرت شهور وشهور دون أن يعثر على أثر ما لألماس... وأخيراً، أعلنت الشرطة جائزة مالية قدرها خمسون ليرة ذهبية لمن يرشد إلى مكان ألماس أو يلقي القبض عليه حياً أو ميتاً.

أبو دياب وحده، ظل يردد بين رفاقه أن ألماس مات... ويؤكد لهم أن الأوصاف التي نقلها له أحد رجال الهجانة هي أوصاف ألماس. بل طلب من وديع وأحمد أن يرافقاه لجلب بقايا الجثة وإجراء جنازة كبيرة لألماس ودفنه في المقبرة في احتفال كبير يكون بمقام هذا الرجل... تردد وديع وأحمد ثم استنكفا عن الذهاب... قرر أبو دياب الذهاب بنفسه، فغادر دمشق صبيحة يوم جمعة مع مجموعة رجال يبحثون عن ثمرة الفطر (الكمأة) بين أطراف الصحراء. صعد عربتهم الضخمة التي يجرها بغلان، وأمضى معهم طيلة النهار حتى أوائل الليل عندما وصل الجميع إلى أبي الشامات. وافترق أبو دياب عن بقية الرجال باحثاً عن

طعان، جندي الهجانة ذي الذقن السوداء. وعندما التقى به بعد العشاء... استضافه طعان حتى الصباح. ثم سأله عن مبتغاه، قال أبو دياب أنه يبحث عن بقايا جثة ألماس، إلا أن طعّان خيب أمل أبو دياب قائلاً: لقد عرفنا صاحب الجثة، إنه أحد تجار الفطر، هو من أطراف باب الجابية عندكم في الشام، ولم يكن من العقيبة ولم يكن اسمه ألماس، بل عبدو التيناوي الملقب بأبو علي.

عاد أبو دياب إلى الحي بعد ثلاثة أيام، راوياً للجميع. أن قتيل الصحراء لم يكن قط ألماس، بل أبو علي التيناوي من باب الجابية.

علق أبو العز صاحب المقهى قائلاً: لو أن عمر ألماس انتهى، فإنه لن يموت على أيدي الذئاب، ولا طعناً بالخناجر، بل سيموت هكذا على فراشه عندما ينتهي عمره كما مات خالد بن الوليد وكما هو مكتوب له... يا رجال، ألماس حي، وهذا شيء جميل، أتى ألماس إلينا أو لم يأت... لكن قلبي يحدثني أننا سنراه في القريب العاجل.

أبو الود استوحش كثيراً، قال لأبو العز دامع العينين:

- أصلح الله ألماس، ما كان عليه أن يفعل ذلك، ربما ظلم، لم أقرب حسنية منذ عشر سنوات. ماذا كانت تفعل؟ إمرأة بعز صباها، نضرة كتفاحة، روح وجسد، ماذا كانت تفعل؟ لقد قلت لها مراراً دعيني أطلقك وتستريحي. كانت تقول لي: ماذا يقول عني أهل الحي؟ يقولون تخليت عن عاجز. حرام. حرام.

كنت أحرص يا أبو العز أن أفعل شيئاً من أجل صباها، فعلت ما حرم الله بألف وجه ووجه. لكن حسنية إمرأة وهي بحاجة إلى رجل، لم أكن رجلاً، كنت وجهاً فيه فم ولسان يتحرك وعين ترى فقط.

وهي تتلوى أمامي بكل سخاء جسدها... لا ترفع يدك بالله عليك يا أبو العز، لا تشح بوجهك. أنت أخي وخليي. إسمعني. أكاد أختنق بين قلبي وعنقي... إسمعني، وارو حكايتي وحسنية متى شئت. لا يهمني، أنا نصف رجل. أنا رجل ميت إلا الرأس المزدحم بالآلام والقلب المفجوع. ليال بكاملها تجلس أمامي بكل توقها وشهيتها وأنا منثنٍ فوق مقعدي لا أريم، بقايا يدي تتحرك على جسدها الناعم الأملس، فيقشعر تحت أناملي كفراشة تقترب من القنديل. كانت تضاحكني وتمازحني أحياناً: لماذا يحق لكم أكثر من زوجة ولا يحق لنا أكثر من زوج؟ وأضاحكها وأمازحها: من أجل أن يحفظ النسل يا حسنية. كانت تشتهي ولداً. دائمًا كانت تفش خلقها بالفرنسيين، أولاد الكلب، كأنهم جاؤوا البلد ضدي وحدي. كانت تغيب عن البيت حيناً وتعود دائخة، قالت ذات مرة، أنها بصقت في وجه ضابط فرنسي، فظل يضربها حتى أدماها... صارت تكره عزيز جارنا الطيب المؤمن لأن لون بشرته زرقاء. مرة رمت فوق رأسه سطلاً من الماء، لعنها بالكتب السبعة والسماوات السبع. كنت أسمع لعناته وأتمزق. ماذا كنت أستطيع أن أفعل من أجل حسنية، يا ما كنت أفكر بالانتحار كي أفسح لها مجال

الحياة، أن تبدأ من جديد مع رجلٍ سوي، ينقذها من الذل، ويعود إليها في المساء محملاً بالرزق، وتستقبله هي بالوجه البشوش والطيب... إنني لأذكر قبل الحادث المشؤوم، كيف كانت حياتنا، ملأى بالحركة والصخب والغناء والرقص. لعن الله الفرنسويين، هؤلاء خربوا كل شيء. ما كان باليد حيلة، والوطن غال يا أبو العز... الآن، هذا العاجز الذي أمامك، أحزانه جبل، ودموعه بحار وأنهار وينابيع. كان عشقي لها يمنعني، كنت أستصرخ كل خلاياي عسى أستيقظ، كنت أصلي بكل حرقة وولوع، عسى تدبّ الحياة في أطرافي. فإذا أنا كتلة من اللحم مرمية على كرسي، ميتة... وهي، يا أبو العز، يا أخي، كانت نضرة وسخية ومبهجة إلى آخر الحدود، سامحك الله يا ألماس... أين هو مما أنا فيه... إنني لأتذكر الآن وأتساءل وأستغرب: أبو عجاج الأملس الوجه الأشقر ذي العينين الزرقاوين وذي الفم المهزوز المسترخي على أسنان فرق... كم كانت حسنية تكره أمثال هذه الأشكال من الرجال، خصوصاً بعد الاحتلال، وبعد المصيبة التي جرها علينا. ألماس دمر حياتي بجهله يا أبو العز. أما خطر بباله وهو يحز رقبتها بالسكين كم احتملت من أجلي، وكم تعذبت. لقد كان يمنع عنا ذل

السؤال، هذا صحيح، لكنه، بفعلته هذه، منع عني بهجتي الحقيقية. كانت هي الحياة، وحدها تتحرك أمام عيني شعلة ودفئاً... الآن، ماذا أنا فاعل يا أبو العز، الظهر مقصوف، والقلب مكسور الخاطر.

لم تمر بضعة أيام على لقاء أبو الود بأبو العز، حتى هب سكان الحي يطفئون الحريق في بيته.

وداخل غرفة حسنية، وجدوه على حافة فراشها مذبوح اليد بزجاج القنديل المكسور. رأسه ملقى إلى الخلف بثقل صخرة، وعلى كتفيه شال من الصوف الأسود مصنوع باليد... كان شال حسنية، عرفته الجارات قبل الجيران. ياما كانت تتلفح فيه أيام الشتاء القارسة.

وشُيع أبو الود كشهيد،

حملته الأيدي على راحاتها، وردد الرجال خلفه نعشه: لا إله إلا الله والشهيد حبيب الله.

كان المقهى غاصاً برواده من رجالات الحي، الدخان عابق والنرد يقرع الطاولات. وفي الخارج، المطر يهطل بغزارة، والريح تزمجر، ويتسلل الهواء البارد عبر شقوق نواقد المقهى، فيلسع الوجوه بشراسة. ضجيج صاخب، لا يكاد يظهر صوت مميز. كأن الجميع يتحدثون معاً ويصرخون معاً ولا أحد ينصت إلى أحد. وكان أبو العز بين الحين والآخر يحقن «اللوكس» فيشع نوره أكثر فأكثر، يوسّع رقعة انتشاره فيبدد بعض ظلالات الأشياء على الجدران والطاولات وفوق الرؤوس الملفح بعضها بحطات بيضاء وحمراء ومرقطة، وبعضها بطرابيش حمراء ونبيذية.

وفجأة ران صمت.

صمت وعيون مندهشة، جميع الوجوه التفتت

صوب الباب، فإذا بها أمام ألماس. ألماس بقامته المديدة، ألماس بطربوشه الملتصق بحاجبيه الكثيفين، ألماس بوجهه الصارم القاسي الملامح. ألماس بصوته الجهوري الضخم يلقي التحية «السلام عليكم يا رجال»، وتردد الأصوات دفعة واحدة ومتلاحقة وحارة: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته»... ثم سرعان ما هب الجميع يرحبون بالرجل الغائب عنهم فترة طويلة، يفاجئهم بإطلالته غير المتوقعة. عانقه رجال، وقبله آخرون. هلل له من بعيد الذي لم يطله... ثم شق طريقه بين الزحم حتى وصل إلى أبو العز الذي كان يفتح له ذراعيه: يا أهلا ألماس، طولت الغيبة، وألماس يردد: والله اشتقت لكم يا رجال... اشتقت لكم. كنتم في العين والرأس. كيف الأحوال يا أبو العز. لا بأس يا ألماس لا بأس... الكل بخير. إجلس وارتح... ثم نتحدث.

جلس ألماس على جانب الكرسي مسنداً ظهره إلى الجدار، شاداً من قامته، كأنه مغروز إليه بالمسامير. بينما استندت ذراعه إلى مسند الكرسي، وراح يتأمل الذين حوله ويده اليمنى تداعب شاربيه.

صاح أبو العز: نرجيلة يا ولد... نرجيلة عجمي لعمك ألماس...

بعد قليل، أحضر الولد النرجيلة، فأخذ ألماس نربيشها إلى فمه وراح يمجها بإصرار، إلى أن امتلأ فمه بدخان التبغ.

- إيه يا أبو العز... والله زمان.

- والله زمان يا ألماس...

كانت عيون الرواد ترمُق ألماس بين الحين والآخر، ثم تعاود اهتمامها بما يلعب أصحابها من ورق أو نرد. وألماس مشدود الظهر إلى الحائط يعالج نرجيلته كلما خبا نارها، وأخيراً سأل ألماس أبو العز:

- ما هي أخبار أبو الود...؟

فوجىء أبو العز بالسؤال، لم يكن يعرف أن ألماس ما زال جاهلاً عما حدث. ظل صامتاً لحظة، فقلق ألماس، ثم عاود السؤال:

- سألتك عن أخبار أبو الود؟

قال أبو العز متلكئاً مداوراً:

- ألم تدرِ؟

- ماذا؟

- أعطاك الله عمره.

وشهق ألماس

- يا الله... ماذا تقول؟

- والله... مات من شهرين يا ألماس.

- من شهرين... كيف؟ ألم تره قبل موته... هل عرف ماذا فعلت من أجله؟

تردد أبو العز قليلاً ثم تابع:

- والله يا ألماس... ربما مات بسبب ما فعلت أنت من أجله...

- ماذا تقول؟

- لأقل لك الحقيقة، لقد انتحر أبو الود، ذبح يده بزجاج القنديل ونزف حتى الموت، وترك القنديل يشعل البيت ويحترق.

وانتفض ألماس فوق كرسيه، متجهم الوجه. لاحظ أبو العز. كاد بريق عينيه ينطفىء ويحل فيهما حزن شديد الوطأة... ثم يختنق صوت ألماس في حنجرته ويخرج متعثراً:

- ماذا تقول يا أبو العز؟

- هكذا يا ألماس... رويت له قبل ليلة ما

طلبت مني أن أرويه، وفي اعتقادي أن هذا سوف يريحه، ما كنت أعرف أنه يحب حسنية إلى هذ الحد. كان يحبها يا رجل، بل ربما كان على علم بعلاقتها بأبو عجاج، لكن، كان متردداً في تصديق ذلك. أبو عجاج أشقر كالفرنسويين وهي لا تحب الفرنسويين... ولكنه، كان يعرف أن لجسدها عليها حقاً، كان يتمنى منها أن تقبل الطلاق وتجد زوجاً وتعيش حياة طبيعية وتنجب أولاداً. كانت ترفض. وعندما رويت له الأسباب التي دفعت بك إلى قتلها، تمنى لو لم تفعل. كنت أحس وراء نظراته ذلك الأسى الفاجع. كان يريدها أن تبقى إلى جانبه مهما كان الثمن، بل كان يتمنى أن تعيش حياتها التي حرمت منها بسبب حالته الميؤوس منها، شرط أن تبقى إلى جانبه. لكن محاكمتك السريعة لحسنية، ومن بعد أبو عجاج، وقرارك السريع بالاجهاز عليهما، جعلت حياة أبو الود لا تطاق، كنت أحس بصوته المتهدج وهو يشكو لي أساه الفاجع. خيّل لي كأنه هو الآخر قد اتخذ قراره: سأنتحر، سأفارق الدنيا، مراراً، وأنا بين يديه استمع. صرفت ذهني عن هذه الأفكار. إن بطلاً مثل أبو الود قاتل الفرنسيين وصمد أمام تعذيبهم لا يمكن أن يفكر بالانتحار... ولكن عندما علمت في اليوم التالي أن أبو الود قتل نفسه،

أدركت كم كان يتعذب ذلك الرجل المسكين... وأدركت كم كان خطأي فادحاً لأنني لم أحاول أن أثنيه عن عزمه.

عندما توقف أبو العز عن الكلام، لمح في عيني ألماس ثمة دمعة متحجرة، تلمع داخل مآقيه كجوهرة... يذكر أبو العز فيما بعد، أنه طوال عمره لم يلمح دمعة في عيني رجل بمثل ذلك البريق النقي المذهل في لمعانه... وخلف تلك الدمعة كان ألماس كأنه يتهشم من داخل، يتطاول كعمود من الرمل ثم يتساقط دون أن يتحرك جسده المشدود إلى الجدار. وخلف هاتين العينين المرسومتين بكحل خفيف كأن موج البحر ينحسر إلى هناك. إلى الأفق البعيد.

كان صمت ألماس مخيفاً. لم يحاول أبو العز اقتحامه خشية من انفجار ما. لقد انتبه كما لو أن ألماس يحاول مضغ خشبة النربيش التي في فمه، بينما كانت يده الأخرى تعقف شاربيه بعصبية ظاهرة... كان ألماس تلك اللحظة رجلاً ممتلئاً بالغضب والحزن معاً. لعله، في هاتيك اللحظات كان يتساءل عن العدالة التي أراد أن تسود في الحي على طريقته. وهو، هنا، يشعر أنه، هذه المرة، قتل برئياً عن عمد وتصميم؛ قتل أبو الود،

هذا البطل الذي أحبه، وجعله المثل الأعلى الذي على الجميع أن يحتذوا به. وحرص طوال السنوات العشر على وده وصداقته ومحبته.

وعندما سأل ألماس أبو العز أين دفن أبو الود؟ قال له: أنزلناه على قبر خاله. وألماس الذي يعرف المقبرة قبراً قبراً، ويعرف معظم الذين ماتوا في الحي أين دفنوا، نهض فجأة، وضع يده على كتف أبو العز متوداً، وربت بهدوء عليها، ثم همس بصوت مكسور: أراك فيما بعد.

وتسلل ألماس حزيناً من المقهى، متعباً، متهدماً، معظم الذين في المقهى لم ينتبهوا إلى خروجه...

كان المطر في الخارج ما يزال،

تلفّح ألماس بعباءته البنية من رأسه إلى أخمص قدميه يغذ السير نحو المقبرة. وما إن ولج بابها الرئيسي حتى اندفع راكضاً بين القبور، ربما، ذلك اليوم، كل المحيطين بالمقبرة سمعوا تلك الصرخة المدوية في وسطها، واعتقدوا فيما بعد، أنه هزيم رعد. كان قبر أبو الود تحت ساعدي ألماس الآن، كأنه يحاول احتضانه وضمه إلى صدره. ربما، في تلك الهنيهات الفاجعة، كانت دموع ألماس تختلط بالمطر الهاطل فلا تبين، أيها

قطرات المطر وأيها قطرات الدموع؟ ثم جثا ألماس على ركبتيه فوق الوحل ينادي على أبو الود «وينك أبو الود، يا زين الشباب، يا وردة الرجولة... إنّا لله وإنّا إليه راجعون»... ولعل جنازة أبو الود اكتملت عظمتها تلك اللحظة، فلم يحزن عليه أحد حزن ألماس... وقد ظلّ ألماس يضرب صدره بكلتا قبضتيه ويتأوه: «أنا قتلتك يا زين الشباب، أنا قتلتك ولا أعرف أنني قاتلك. فرنسا بكل دباباتها وجيوشها لم تستطع أن تقتلك... أنا قتلتك... يا ويلي... ماذا أثمت يداي؟».

فيما بعد، بُني قبر أبو الود من جديد. كان من التراب وأصبح من الرخام، أزيلت قبور صغيرة من حوله، وزرعت الأرض ورداً. وقيل أن ألماس فعل كل ذلك، وظل زمناً لا يكاد يفارق المقبرة، يلتف بعباءته البنية ويجثو قرب القبر ساعات وساعات، حتى كان يخيّل لمتابعيه من نوافذ البيوت، كأنه صنم ملتف بعباءة داكنة.

لم يعد ألماس كما كان من قبل، صار يطل على الحي إطلالات سريعة، ثم ينسحب إلى البساتين والبراري تحت إبطه بطحة العرق، يتوه بين الغابات وعلى ضفاف الأنهر الصغيرة، كل أصحاب البساتين والحقول يعرفونه ويحبونه ويهابونه.

يتندر أبو خليل البساتنة، في المقهى، وهو وراء نرجيلته بألماس، ويوحي أن مسّاً من الجنون الهادىء سيطر عليه. قال في ما قال، أنه وجده مرة بالقرب من حصانه الأبيض يخاطبه بكلمات، ويروي له حكايات... ويدعي أبو الخل أنه، ذات يوم، أنصت لحديثه، كان ألماس دائخاً حتى العمى، يده على عنق الحصان، الذي كان أبو الخل، غالباً، ما يتركه يتجول في البستان يقتات الحشائش البرية، أو يشرب من بركة

الماء... كان الحصان كأنه مخلوق بشري ينصت بشغف إلى ألماس، وألماس يتحدث بأمور غير مفهومة. أتعرف. كنت أحب حسنية، حسنية زوجة أبو الود، إلا أنني لم أبح بهذا الحب لا لها ولا لغيرها. كنت أقتتل مع نفسي باستمرار. عيب يا رجل. زوجة صاحبك. صاحبك البطل الذي هزم فرنسا، وصمد، ولم يخن رفاقه أخونه أنا... أعوذ بالله... أحببت حسنية حتى القداسة، لم أفكر بجسدها قط. صوتها وحده المسيطر علي... صوتها الآتي من آخر البرية نغمًا، وطيراً، وزقزقة عصافير. وخشية أن أقع انصرفت عن المجيء إليها وإلى أبو الود. صرت أرسل الأغراض مع أبو عجاج. أبو عجاج خانني، وخان الخبز والملح وأغوى حسنية... أيمكن أن تُغوى حسنية، حسنية الجميلة النضرة الطرية، تمشي كأنها الأوزة، وتحت نقابها في عينيها ذلك السحر العجيب. أيمكن لأبو عجاج الأبرص الأزرق العينين أن يغوي حسنية؟ لا أصدق، حسنية التي في صدر بيتها بطل مقعد دوّخ فرنسا، وقتل كولونيلها الأشقر السمين دفاعاً عن البلد. حسنية تستسلم لأبو عجاج الأعرج القصير المنتفخ البطن الذي لا يغتسل في الشهرين مرة، وأنا أداري عواطفي وأحرقها. أغرز رأس السكين في فخذي كلما خطرت لي

على بال. حسنية الحلوة كالسكر الأبيض، الغضة كورق الخس، حسنية بصوتها النزق المثير الذي يسحب جيشاً وراءها تستسلم لأبو عجاج؟! هذا الرجل الذي يتمخط أكثر مما يتنفس. ويلي، ويل حالي. أنا الذي نجوت من السقوط من أجل أبو الود. أبو الود، ما كان يتمنى على حسنية إلا أن تتزوج غيره حتى تنجب ولداً ذكياً أو بنتاً تسبح بحمد الله... أيه يا ألماس... ماذا فعلت؟ قتلت الحبيبة والصديق والخل الوفي... فلمن أنت الآن. إبك يا حصان... ألا تعرف أن تبكي... ويلي، ويل حالي، من أين يجيئني النوم؟.

كان أبو خليل البساتنة يبالغ أكثر فأكثر، كلما انتبه أن الناس مشغوفة بحديثه عن ألماس، فيشتط به الخيال، إلا أنه بين الحين والآخر، يقسم بالله العلي القدير أنه لا يكذب. فعلى طرف النهر ذات صباح شاهد ألماس مشمراً عن ساقيه المتدليتين في الماء، يدمدم غناء حزيناً بصوت خافت لا يكاد يسمع، ثم يصرخ عالياً: أخ، ويضرب جبهته، ثم يرمي رأسه على صدره لحظات طويلة لا يريم.

ما كان أبو الخل ينتقص منه، فهو يحبه، مثلما يحبه سكان الحي، وهو يعرف أن ألماس يعاني مما أصاب

الحي أكثر من أي واحد آخر. كان مراراً يرسل له ابنه الصغير ببعض الطعام، فيحمل الولد عالياً، يقبله من جبينه، ثم يعيده إلينا مع الطعام. بعد ذلك تركنا ألماس يفعل ما يشاء. غالباً، كان يتناول طعامه من خضار البستان النيئة، وأحياناً يحضر بطحة عرق ويكسرها بالماء، يجلس على حافة النهر يدمدم أغنيات حزينة مألوفة، ويكرع من البطحة دفعات دفعات حتى يدوخ. فيقف على قدميه، يرتدي مشايته الجلدية الحمراء، ويركز طربوشه الخمري على حاجبيه الكثيفين، ويتلوى بين الشجر كجريح مطعون بظهره، يستند إلى جذع شجرة، ثم ينهض ليلقِ بنفسه على جذع شجرة أخرى. كان البستان بكل ما فيه أليفه. يتحدث تارة إلى الأشجار، وتارة إلى النهر، وتارة مع أشباح لا يراها أحد سواه. ليس مجنوناً ألماس، لا يمكن أن يجّن ألماس... لكن ما يراه أبو خليل البساتنة، وحق الله، وحق النبي العربي، صحيح: استيقظت من النوم على صوت مبحوح يهيم في الليل الأسود، خفت، قلت، لو كان في البستان غريب لنبحت الكلاب. عندي ثلاثة كلاب، جيش فرنسا كله لا يستطيع الاقتراب منها. لكن الصوت المخنوق يتحشرج بالقرب من نافذة البيت، والكلاب شاخصة بعيونها لا تتحرك. أصغيت،

ويدي على الخنجر. ثم تسللت، بعد أن أخذت الجفت وحشوته وقلبي يخفق بشدة. والله يا جماعة... ماذا رأيت؟ أتعرفون ماذا رأيت؟ رأيت ألماس، يلوح بخنجره نحو ما يشبه الشبح، فيلمع حده ثم يختفي. تراجعت إلى الوراء... يا ترى، مع من يتشاجر في هذا الليل المظلم ألماس. ربما أحد اللصوص حاول دخول البستان، ربما جندي فرنسي تسلل إليه طمعاً في الجائزة. لكن، لو حدث هذا بالفعل، لنبحت الكلاب وصرخت وهجمت وأيقظتني. لكن يا جماعة، الكلاب كانت شاخصة بعيونها نحو ألماس، الذي بدا لي عن بعد، كأنه يرقص رقصة الدراويش، يدور ويدور حول نفسه وخنجره يدخل الظلمة ويخرج ملتمعاً تحت بريق النجوم. هلعت على ألماس، خشيت أن أقترب فلا يعرفني، يضربني أو أضربه. تراجعت أكثر نحو البيت، واستندت إلى الجدار أرقب محدقاً في الظلام تلك الحركات المبهمة الغامضة التي كان يقوم بها ألماس، وهسيس صوته يشبه وحشاً غامضاً لم نسمع لصوته مثيلاً... من كان يهاجم ألماس؟ خطرت ببالي حكاية العفاريت والجان الذين لهم علاقات مع ألماس... هل يصارع أحدهم الآن؟ هل هو على خلاف مع واحد منهم.

مضت ساعة أو أكثر وألماس على هذه الحالة، ثم أخذ يهدأ رويداً رويداً. رأيته بعد ذلك يعيد خنجره إلى وسطه ويهرول بعيداً صوب النهر بين أشجار المشمش والدراق.

عدت إلى البيت، أيقظت أم الخل ورويت لها ما رأيت... همست أم الخل: حسنية يا أبو الخل... أعوذ بالله من الشيطان الرجيم... حسنية تهاجم ألماس... تلك التي قتلها ظلمًا، قتلها غيرة لأنها رفضت الاستسلام له... كفاكم تصديقاً له... هذا رجل لا ضمير له يا أبو خليل... وأنت تؤويه في البستان... قتل إمرأة برئية، وقتل رفيق عمره أبو عجاج... وانتحر أبو الود بسببه... عيب عليكم والله... أنتم تجعلون من الرجل أسطورة وما هو إلا قاتل يستحق حبل المشنقة.

وتوقف أبو خليل عن متابعة الحديث عندما سمع من الملتفين حوله همهمة استنكار، ثم أردف: طبعاً أنا لا أصدق هذا الكلام، أنا أعرف ألماس كما تعرفونه، شهمًا غيوراً على الحي ونساء الحي... لذلك طلبت من أم الخل أن تصمت... أنتم تعرفون النساء...

لا ترضى امرأة أن تتهم إمرأة أخرى بالخيانة. . . تدافع عنها حتى لا يصل إليها الشك، الحمد لله، على كل حال، أم الخل على أبواب الستين!.

القسم الثاني

أبو عبدو الطويل في السجن منذ عشر سنوات، نسيه بعض الحي، ولم ينسه ألماس. أبو عبدو الطويل حكم عليه بالسجن المؤبد، بسبب قتله وديع اليهودي الذي كان يتردد على الحي، يشتري الملابس القديمة والأواني العتيقة والزجاج المكسر والقوارير الفارغة والأحذية المهترئة... قتله أثناء الثورة. إذ كان وديع يتخفى وراء مهنته هذه ليتجسس على الثوار، كان عميلاً للفرنسيين، ينقل لهم ما يتجمع عنده من أخبار في أحياء دمشق القديمة، التي كانت تعقد في بيوتها الفسيحة الاجتماعات الوطنية... ولم ينس أبو عبدو ذلك اليوم عندما استطاع وديع أن ينقل للفرنسيين خبر اجتماع زعماء الأحياء في بيت الجلاد. فقد أصبح هذا البيت مقراً للقاء كبار التجار والصناعيين الذين كانوا يمولون الثورة... في ذلك اليوم، كان هؤلاء قد بدأوا

يفدون إلى اجتماعهم المعتاد وقد جلبوا معهم الأموال والمصاغات الذهبية التي استطاعوا جمعها مجدداً والتي بثمنها سيقدمون للثورة أسلحة وذخائر جديدة.

حين توافد زعماء الأحياء، الواحد تلو الآخر، كان وديع يتظاهر بشراء الملابس العتيقة من منزل المرحوم أبو توفيق... فمنذ مات هذا الرجل، ووديع النحيل ذي النظارتين الرقيقتين والملابس الرثة، يتردد على بيته، وعلى ظهره كيسه الكبير الذي يتسع لأكوام من الملابس والأحذية المستعملة... كان بيت عرفان الجلاد الكبير قريباً من بيت أبو توفيق... وهناك، كان الفرنسيون يعرفون، من وديع نفسه، أن ثمة أشياء غامضة تدور فيه، فكلف بمراقبة البيت، وكان الطعم بيت أبو توفيق، حيث ظل وديع يماطل أرملة المرحوم أبو توفيق في أشياء كثيرة. يشتريها، ثم يتركها عندها أمانة لأن كيسه - كما كان يدعي - لم يعد يتسع. وكان يأتي يومياً إلى الحي صارخاً بصوته الأعوج: ملابس للبيع... أحذية للبيع...

ذلك اليوم، يروي أبو عبدو، لم يكن في الزقاق الذي يقع فيه بيت الجلاد، من غريب، غير وديع

اليهودي. رجال كثيرون جاؤوا متلفحين بحطاتهم وعباءاتهم البنية والسوداء، كل واحد منهم يحمل معه أكثر ما يملك من مال وأوان فضية وذهبية وأساور زوجاتهم وخواتمهن.

اختفى وديع اليهودي فجأة. ترك كيسه على باب بيت المرحوم أبو توفيق وهرول بعيداً... وعندما جاء أبو عبدو ومعه بعض رجالات الأحياء يقودهم إلى بيت الجلاد، صاحت أم توفيق بأبي عبدو: يا أبو عبدو... يا أبو عبدو... وديع اليهودي... لا أدري ما الذي حدث له، ترك كيسه هنا، وهرول بعيداً... لا أدري أين ذهب. ما في بالعادة أن يترك كيسه عند أحد... أنت تعرف، وديع يهودي، واليهود حريصون على أموالهم.

توجس أبو عبدو من حركة وديع، دل الرجال على بيت الجلاد، وانسحب بخفة إلى ظاهر الحي... وذهل، عندما رأى وديع مع مجموعة من الجنود الفرنسيين يشير لهم إلى مكان الاجتماع. عاد أبو عبدو هرولة وهو يصرخ بين أطراف الحي: الفرنسوية قادمون... قولوا للرجال أن يهربوا...

توارت الرجال، فُتحت لهم بقية البيوت على عجل. نساء صرخن، من هنا أيها الرجال، تعالوا إلينا، لا تخافوا. تسلل الرجال، كل واحد، أو اثنين معاً، إلى البيوت التي شرعت مجتمعة أبوابها... ثم أغلقت جميع الأبواب.

دخل الجنود الفرنسيين الزقاق شاهرين أسلحتهم، ثم طرق ضابطهم باب بيت الجلاد... وما إن فتح حتى اقتحم الجنود المنزل. لم يجدوا أحداً من الأغراب... إلا أنهم اعتقلوا الأب وابنيه الشابين ونهبوا كل ما في المنزل من أموال وتحف أثرية وسجاد... ثم قادوا أسرة الجلاد إلى السجن.

أبو عبدو كز على أسنانه. سحب مديته وبراها بحدة على حجر الزاوية في الجدار. وظل يترقب وديع اليهودي الذي لا بد أن يعود لأخذ كيسه.

عاد وديع اليهودي بعد ساعة متظاهراً أنه نسي الكيس، وما أن لمحه أبو عبدو حتى أطبق عليه، نخّه إلى الأرض كما ينخون الجمل ليقعى. ثم ذبحه من الوريد إلى الوريد.

هرب أبو عبدو أياماً طوالاً، ثم القي القبض عليه وحوكم، وفي المحكمة الفرنسية سأله الحاكم: لماذا قتلت وديع اليهودي... صاح وهو يبرم شواربه: جاسوس، خائن، يا سيدي... وأنا فخور بقتله.

بعد جلسات عدة، صدر الحكم على أبو عبدو بالسجن المؤبد.

منـد عسـر سنـوات، ومقهى الحي محـروم من سهرات الحكواتي، كان أبو عبدو حكواتي الحي، كل ليلة يجلس عـلى سدة عـالية ويفتـح كتابـاً... يضع نظارتين على أرنبة أنفه ويقرأ عليهم حكايا سيف بـن ذي يزن والزير سالم وعنترة بن شداد. كانت لأبو عبدو هيمنة على الحي تشبه هيمنة ألمـاس. كان الرجلان، مثل أخوين، كلاهما يحب الآخر، ويدافـع عنه أيـام الشجارات المختلفة مع رجالات الأحياء الأخرى... وكان أبو عبدو لا يفك أسر عنترة، أو إخراج سيف بن ذي يزن من القمقم إلا برجاء من ألماس.

يجلس على السدة -هكذا يروون- كملك على عـرش، يلك إبهامـه وسبابتـه في ريق فمـه. ويفتـح صفحات الكتاب، وفجأة، يصمت رواد المقهى صمتاً

عميقاً، وتشرئب نحوه الأعناق، حتى كركرة النراجيل تخف وطأتها: يا سادة يا كرام، ويبدأ أبو عبدو بالحكاية، بصوت جهوري، ترافقه حركات تمثيلية تضيف على الحكاية جاذبية تشد الناس إليه، فيتابعونه بعيون شاخصة نحوه، فينتصرون لعنترة في المعارك، ويدافعون عنه، ويتمنى كل واحد منهم أن يكون مثل عنترة في البطولة والشهامة ونجدة الغير، وله، كما لعنتر، عبلة جميلة، دعجاء العينين، فسيحة الجبين، صغيرة الفم، عذبة الحديث... ويصمت أبو عبدو مستطلعاً في عيون مستمعيه مدى الاستجابة إليه، فتصرخ الرجال في المقهى: وبعد ذلك يا أبو عبدو... ويصيح لاعب دمى الكرتون الكراكوزاتي أبو حميد: وماذا حدث لعنترة يا أبو عبدو، ويتشاغل أبو عبدو رغبة منه في شد الجالسين أكثر فأكثر. وفي الحالات التي يقع فيها عنترة في الأسر، لم يكن أحد يستطيع أن يجبر أبو عبدو على فك أسره أو معرفة مصيره في مغامرة ما إلا ألماس.

يدخل ألماس مسرعاً، ويلقي بنفسه على كرسي قريب، يرتفع بقدميه على الكرسي، ثم يجلس فوقهما متدثراً بعباءته منصتاً إلى أبو عبدو:

ـ أي... أبو عبدو... أكمل.

- تكرم عيونك أخوي ألماس، يا سادة يا كرام... فقال له أبوه: مالك يا ولدي، تكلم واظهر ما تخفيه وأنا أقابل الظالم على أفعاله وأجازيه... فقال مالك: «ماذا أقول يا أبي... لعن الله الظلم ومن تبعه ومن رأى الحق ولم يكن معه» ثم حدثه بما فعل بنو زياد مع عنترة، وكيف نقضوا عهده بالزواج من عبلة، فعند ذلك أحضر الملك زهير عمارة وقد صعب عليه فقد عنترة، وقال له: والله يا كلب العرب، وقليل المروءة والأدب، كل ما جرى على عنترة وعلى ولدي شاس هو عاقبة بغيك، وقلبي يحدثني بأن ولدي شاس وقع في مصيبة من تعصبه وأنت لا تريد أن ترجع عن هذا البغي والعناد... ولسوف تكون سبباً في محو آثار بني زياد... فقال له عمارة: وأنا يا ملك ما ذنبي حتى نسبتني إلى هذا الكلام؟ فقال الملك زهير: وحق من رفع الخضراء وسط الغبراء، إن هلاكك كان أفضل من نجاتك، أهذا جزاء عنترة منك وقد خلصك من الأسر عند عودته من ديار كسرى بعدما جرى لك معه ما جرى؟.

كان أبو عبدو، المعجب كثيراً بعنترة، يتلاعب

بجمهوره، سكان حي العقيبة، وكانوا يربطون بينه وبين عنترة، حتى كأنهما معاً فارس واحد.

وغالباً، ما يصمت أبو عبدو، كي يتمتع بصرخات المشدوهين: أكمل يا أبو عبدو أطال الله عمرك... ويطلب أبو عبدو كأس شاي، يسرع أبو العز لتلبيته بنفسه: «تكرم أبو عبدو، والله حديثك حلو كالسكر، وأنت رجل مثل عنترة»... يبرم أبو عبدو شاربيه، ويرمق ألماس الذي يمسح بين الحين والآخر رأسه بباطن راحته، ثم يعيد طربوشه مركزاً طرفه فوق حاجبيه الكثيفين... ويقال، إن آخر مشهد من مشاهد عنترة جاء على لسان أبو عبدو قبل مقتل وديع اليهودي. قال الراوي: «ووصل الخبر إلى عبلة في الخيام أن عنترة في قتال أنس بن مدركة سيد بني خثعم فنادت من وسط السبي بأعلى صوتها وقد انتعشت روحها بعد موتها: يا ابن العم لا أذاقني الله فقدك، فما جفت لي دمعة من بعدك، فلما سمع عنترة نداها... تلهب قلبه لشكواها، وصاح على أنس صيحة عظيمة، فأرهبه وأوهبه واتبعه، ثم لاصقه وضايقه وسد عليه طريقه، ومد يده واقتلعه من ظهر جواده، ورفس حصانه برجله، فألقاه على وجه الأرض، فعند ذلك هاجت

فرسان خثعم وتجردت للممانعة واحتشدت للمقارعة والمدافعة، وهجمت كالبرق الخاطف، واندفعت نحو عنترة، فالتقاهم بسطام بمن معه من الأبطال، وصاح فيهم صيحة الأسد وطعن في صدور الرجال، فجرّع أبطالها كؤوس النقم. وإن عنترة لما تمكن من أنس بن مدركة عول على أن يكتفه ويلقيه على بساط المعركة، فدافع عن نفسه وتمنع، فضربه على كتفه بالسيف، فألقاه جريحاً على الأرض، ثم حمل لمعاونة بسطام وجد في ضرب الحسام، ونثر الجماجم تحت الأقدام، فانحلت من أعدائه العزائم، وخيل لهم أن البر كلّه رماح وصوارم، فهان عندهم ترك الأموال والغنائم، وتفرقوا في الفلوات، وما زال عنترة وأصحابه يطاردونهم حتى فرقوهم في تلك القفار، ثم رجعوا جميعاً إلى قومهم سريعاً، فحلوهم من السلاسل والأغلال وهنأوهم بالسلامة وترك الاعتقال. فانشرحت خواطرهم، وزالت عنهم الأتراح وابتهجت سرائرهم من السرور والأفراح، وأقبلوا على عنترة وشكروه، وأثنوا عليه ومدحوه، وتقدم عنترة إلى عبلة وسلم عليها وأظهر لها ما عنده من كثرة الأشواق إليها. وقال لها والدموع تملأ عينيه: أتظنين أني أنساك، وأغفل عنك ولا أرعاك؟ فبكت وقالت: إن أبي قد أحاط به الويل، فأضحى قتيلاً تحت حوافر الخيل،

فـوالله لا خلعت لبس السـواد ولا تبسمت للمـواسم والأعياد، حتى تأخذ لي ثأره وتكشف عن عاره.

فلما رأى عنترة كثرة بكاءها، تألم قلبه من شكواها وقال لها: «يا منية القلب أبوك سالم من كل ضير، وقد تركته وعنـده أخي شيبوب ومـالك بن زهـير» ثم إن عنترة- ياسادة يا كرام- أرسل عروة بن الورد إلى معركة القتال، ليأتيه بأنس بن مدركة في الحال، فسار عروة في جماعة من الفرسان، وتفقدوه في هذا المكان، فلم يقفوا له على خبر لأنه هرب. فرجعوا، وأخبروا الأمير عنترة فقال لقد تهاونت في أمره وكان الواجب قتله وقـطع خبره.

قال الراوي، يا سادة يا كرام، أعزكم الله وحماكم من سوء اللئام: وسار عنترة ومن معه من الأبطال، عائدين إلى الديار، وقد ظن أن الزمان سالمه وصافاه، وأنه سينعم بعبلة ويبلغ مناه، وهو لا يعلم أن ظروف الزمان تفعل ما لا يخطر على بال إنسان».

وبالفعل، يقولون، كان هذا آخر مقطع رواه أبو عبـدو من سيرة عنتـرة في مقهى العقيبة، إذ حـدث ما حدث بعد ذلك، مقتل وديع اليهودي والقاء القبض على أبو عبدو وصدور الحكم عليه بالسجن مدى الحياة.

عشر سنوات وسدة الملوكية فارغة من ملكها أبو عبدو، حتى ابنه عبدو، الذي حاول مراراً أن يكون هو راوي المقهى كل ليلة لم ينجح، عبدو ثقيل الحضور، مختلف عن أبيه في أمور كثيرة، مطواع له، يأمره فيطيع، ينهاه فينهى. حتى بلغنا ذات يوم أن عبدو قتل امتثال، أخته السمراء، الفارعة الطول، التي كانت تبدو تحت ملاءتها السوداء حورية من الجنة، غصن بانٍ يتمايل. كانت تمر بخاطر الشباب، كحكاية من حكايات ألف ليلة وليلة، ويحلم بها الكثيرون، ولكن، خشية من ألماس، ومن أبو عبدو السجين، لم يكن أحد يجرؤ أن يقول لها كلمة. كانت عيناها من وراء المنديل الأسود تبدو كعيني غزال شارد. صدرها، رغم ما تخفي منه، يهتز بانتظام فوق خطواتها كأن فيه حمامتين مسجونتين تتمنيان الخروج من الأسر. يقال، إن امتثال، بغياب أبيها، أصبحت هي الآمرة الناهية. ما كان عبدو، رغم أنه أكبر منها في العمر، يستطيع منعها من الخروج من البيت. كانت تخرج من الحي صباحاً، ولا تعود إلى مع إطلالة الغروب. قالت لصويحباتها إنها تتعلم مهنة الخياطة عند السيدة لور في طريق الصالحية. وهناك، كانت تتعرف على سيدات البلد الغنيات. إذ كان حي الصالحية هو الحي

الارستقراطي الوحيد في تلك الأيام. وكم من مرة، تحدثت امتثال عن سيدات أجنبيات، زوجات الضباط الفرنسيين وكبار الموظفين القادمين من باريس، سيدات شقراوات يضعن الأحمر على خدودهن وشفاههن، أنيقات، يجئن بقطع من القماش الباريسي تتحول بعد أيام إلى فساتين ملفوفة على أجسادهن بأناقة... وقد جئن من بلادهن تجذبهن رائحة الشرق وسحره. كانت السيدة لور تروي لامتثال أحياناً ما تسمعه من أولئك النساء، وغالباً، ما كانت تشتهي امتثال لو تتدخل السيدة لور لدى هؤلاء لانقاذ أبيها من السجن، أبو عبدو الشجاع، الذي تركها وهي بعد في العاشرة. ومنذ ذلك الحين تزوره مرة واحدة في الاسبوع مع خالتها، في الوقت المحدد لزيارات النساء، وكانت تحزن كثيراً لأنها لا تستطيع أن تصل إلى شاربي أبيها وتقبلهما وتداعبه وتمازحه، وتجلس في حضنه تشد له سوالفه. أبو عبدو الشجاع، قاتل الخائن وديع، الرجل الشهم الذي كان يروي لها الحكايات الجميلة... وكانت غالباً في الأماسي التي لا يروي فيها قصصه في المقهى، تنام على صدره، وهي مأخوذة بالحكايات الكثيرة التي كان يحفظها ولا يروي الواحدة منها مرتين. أبو عبدو الفارس، النبيل، الذي تشتهيه النساء، وما كان

يقرب، منذ وفاة أمها، امرأة. كان يعيش على ذكراها، تلك السيدة المؤمنة، التي كان كل همها أن تجلس لله تصلي له وتشكره على هذه النعمة. ويقال أنها يوم ماتت، سقطت من عيني أبو عبدو دمعتان سخيتان، واقترب من جبينها العطر وقبله هامساً: يتمتني يا أم عبدو.

وروي كثيراً عن طهارة السيدة الراحلة، فالنساء اللواتي غسلنها قبل إدراجها في كفنها، قلن أن رائحة جثتها كانت مسكاً وعنبراً، وكلما سفحن الماء على جسدها المشدود فاحت رائحته العطرة أكثر فأكثر. ماتت أم عبدو في الخامسة والأربعين... ولكن، كانت تبدو، وهي مسجاة، كأنها صبية في العشرين.

يوم قتل عبدو امتثال، حزنت السيدة لور كثيراً عليها. روت لضابط سوري في الشرطة، أثناء التحقيق، أشياء كثيرة عنها، وذاك الضابط كان من سكان حي العقيبة، يعرف أهله فرداً فرداً، عندما تحسنت حاله انتقل إلى الصالحية. لكنه ظل وفياً لمرتع الطفولة والفتوة، وكان يزوره بين الحين والآخر، وكم

روى لأبو العز، في فترات متقطعة، شطحات ومقاطع، على لسان خياطة حي الصالحية لور، بحق امتثال، فاتنة الحي ذات الملاءة السوداء.

كان الكولونيل الفرنسي قد صعق يوم رآها عند السيدة لور، قال لها: ما رأيت مثل هذا الجمال حتى في باريس، ولور تقول له: من أنبأك أن أجمل النساء في باريس. بل هن هنا، في دمشق، في عز الشرق، وعز الشرق أوله دمشق. هنا، في أحيائها، يختفين وراء ملاءاتهن السوداء. جمال نضر كالبدر. خام. لم تلمسه يد. حتى الرجال، غالباً، خشية من السقوط والذل. لا يلمسون نساءهم إلا لماماً من أطراف الأصابع، خجلاً، ورجولة، وتقديساً.

الكولونيل الأشقر، الفارع الطول، الحليق، ما نسي امتثال. ظل، منذ رآها أول مرة يتردد على مشغل السيدة لور، كل مرة بحجة، يجلب لها رفاقه في الجيش. ورفاقه يجلبون نساءهم... حتى انتعشت مهنتها، وأصبح صيتها على كل شفة ولسان فرنسي في دمشق والضواحي... كان صالونها لا يفرغ أبداً. نساء ورجال، من باريس، ونيس، ومرسيليا، حتى من السنغال، سود وبيض. وامتثال، فاتنة الكولونيل،

ببراءتها، كانت نسأل السيدة لور، لتتوسط للكولونيل عسى يستطيع الافراج عن أبيها. ومع تمنيات لور على الضابط الفرنسي، ذات يوم، طلب بوضوح ودون التواء أن تزوره امتثال، في الوقت الذي تكون فيه مدام جوزفين زوجة الكولونيل، لدى السيدة لور، مشغولة بتفصيل فساتينها.

أدركت السيدة لور غاية الكولونيل، لكنها، كما تروي مقسمة أغلظ الأيمان، حذرت امتثال: هؤلاء لا يفعلون شيئاً دون ثمن. انتبهي، قد يطلب منك ما لست قادرة على عطائه. امتثال ببراءتها تساءلت: ماذا يمكن أن يطلب... وزوجته أجمل مني ألف مرة، السيدة لور تقول: لا... ليست أجمل منك. حتى لو كانت أجمل منك أنا أعرف الرجال، يشتهي إمرأة فيراها بدراً، ويفعل المستحيل كي يصل.

وتفخر السيدة لور للضابط السوري بطرف عينها: ما كانت مدام جوزفين تبغي الفساتين، بل كانت تتمنى علي أن تلقى بائع الحليب القادم من التل بجسده الفتي المفتول، وبساعديه القويين كأنهما غصنا شجرة زيتون. كان يعتصرها وراء باب البيت وهي تتأوه كأن كل لذة الدنيا تفوح من مسام جسدها. وأنا، لن تظلمني، كنت

أنتقم على طريقتي، كنت أحب لرجل من هذا الوطن، بائع حليب جاهل، لا يعرف أن يطبق كلمة على كلمة، لا يغتسل إلا نادراً، أن يعتصر إمرأة فرنسية لا تغتسل بالماء، بل بالعطر والحليب. هل كان يعلم الكولونيل؟ لا أدري، ذات يوم، غمزت من قناة مدام جوزفين، لفتُّ نظرها إلى ما تفعل، فربما، إذا علم الكولونيل، لن يصب غضبه إلا عليّ... همست لي مطمئنة: لا تخافي... الكولونيل لا يفعل شيئاً، وأنا فتية أحب الحياة... هل جئت معه لأدفن حية، جئت الشرق لأبحث عن الحب. الحب الذي فقد لمعانه في بلادنا، الحب الجميل الذي يختبىء في عباءات رجالكم ونساءكم. ما أجمل الشرق يا لور. الشرق كله رجولة بائع الحليب هذا. وبائع الحليب الشهم- ياسيدي- كان يغدق علينا قدرة حليب كل يوم جمعة، ويغدق على مدام جوزفين من رجولته طوال أيام الأسبوع الشيء الكثير. إذن، الكولونيل لا يقدر، ربما بسبب ذلك، لم أخش كثيراً على امتثال.

ذهبت امتثال إليه مراراً، بل يقال أن الكولونيل كان يطلب منها أن تعلمه بعض الكلمات العربية، ويعطيها مقابل ذلك مالاً، اعتقدت أن هذا كافٍ...

لكن الكولونيل صاحب ذوق، ما كان يريد أن يعامل امتثال كإمرأة مومس، أو سبية. كان يريد عواطفها أيضاً. تودده لها، بدا في الأول كاذباً... لكنه، مع مرور الوقت، تحول فعلاً إلى عاطفة صادقة، صار لا يقوى على فراقها، يخلق ألف وسيلة كي يبعد مدام جوزفين ليلتقي بامتثال. آه، يا ليتني راقبت الوضع عن كثب، ما كان ما حصل، قد حصل. لكن جنون الكولونيل أوصلنا إلى هذه المأساة.

كانت لقاءات الكولونيل بامتثال في وضح النهار... أثناء العمل، ما كان أخوها يعرف، ولا بقية أهلها يعرفون... فهي، تعمل عندي، من الصباح إلى المساء، ثم تذهب إلى البيت... ليس من شك في ذلك، ولا مجال لأن يفكروا عكس ذلك. وفي نفس الوقت كانت مدام جوزفين غارقة حتى أقراطها في بائع الحليب الشاب، المفتول العضلات، تمتصه امتصاصاً، وهو فرح بهذا الجسد الممشوق الذي بلون الحليب الصافي، وهذا الشعر الأشقر الناعم، وهاتان العينان الزرقاوان، حتى صار يلقي تحية الصباح بكلمة بونجور، ومساء عندما تيسلل خارج البيت بكلمة بونسوار. امتثال كذلك، مونمور، مسيو الكلونيل، مدام جوزفين...

هكـذا، امتثـال، بسمـرتهـا المحمـرة دائـمًا، بشفتيهـا المتهدلتين كعنقود عنب، بعينيها السوداوين الغامقتين، بشعـرهـا الأسـود المضفـور ضفيـرتـين تحت مـلاءتهـا السـوداء... تتغنج للكـولونيـل ليفرج عن أبيهـا في السجن. لكن، مـع مرور وقت، صـارت تستـطيب الذهاب إلى الكـولونيـل، بل صـارت تحلم بباريس، وبشوارع باريس، بحقـل قرب نيس، فيـه حصانـان أبيض وأسود... وكانت تتمنى على الكولونيل الزواج منها. حتى أنه ذات يوم جاءني هـامساً كيف يصبـح مسلمًا، ودهش عندما تساءلت لماذا... صرخ: لماذا.. يا سيدتي... امتثال الفاتنة لم أعد أطيق فراقها، هذه الجميلة المذهلة، سامحيني إن أخبرتك شيئـاً، أحبها، أحبهـا... تصوري، حتى الآن لم ألمس إلا يـدهـا. لم تدعني ألمس إلا يدها. يدها التي فيها كـل خجل الشرق وكل براءته... برؤوس أناملي قبّلت أناملها، من رؤوس أصابعها التهب قلبي، وقدّت الشرارة في أعصابي. أريد أن أقول لك، سأحقق حلمها، لقـد استعدت إضبارة أبيها، ودرستها دراسة مستفيضة، ثمة ما يجعلني أنجح في إصدار عفو عنـه. سأجـد مبرراً للافراج عنه. يمكن الدفاع عنه من زاويـة جديـدة، لم تكن غايته القتل لمجرد القتل، لم يكن بينه وبين وديع

أي خلاف، أو ثأر... أبو عبدو، قتل وديع، لأن وديع بنظره خائن خان وطنه. هذا صحيح، ذلك اليهودي القتيل كان عميلنا، ففي ملفاته عشرات الوشايات، ومن خلال وشاياته العديدة قتلنا ثواراً وأبرياء. لا ندري، كنا نثق به. وكنا ندرك خصائله الخسيسة فاستغللناها إلى آخر الحدود. صحيح، كان يعمل لمصلحتنا، لكنه في ذات الوقت، كان يخون وطنه ويتآمر عليه مع قوات الاحتلال. نحن، نعم، قوات احتلال، إن أي خائن يستحق الاعدام حكمًا، أبو عبدو، والد امتثال حاكم الخائن بنفسه وحكم عليه بالاعدام، تبرير قوي لانقاذه. للافراج عنه. لدي خطط كثيرة من خلالها سأربط بين ما في فرنسا وموقف هذا الرجل. نحن أبناء الثورة الفرنسية، الثورة بكل قيمها ومبادئها، لا يجوز لها أن ترمي رجلاً في السجن المؤبد لأنه يدافع عن ثورته ووطنه. لو كانت ثمة قيادة القت القبض على وديع بالجرم المشهود كما القى أبوعبدو القبض عليه، لما ترددت لحظة في إعدامه بالرصاص. واثق أنني سأنجح في الافراج عن الأب في أقرب فرصة يا سيدة لور. لتفرح امتثال. كم يهمني أن تفرح امتثال. ليس هناك أهم من هذا العمل النبيل لجذبها إليّ... سأبذل كل جهدي، سأستميت من أجل

إخـراج هـذا الـرجـل الشجـاع من السجن... ما أظلمنا... كيف لم ينتبه الحاكم العسكري إلى هذه الأمور... كيف لم يفكر ماذا كان يفعل لو كان مكان أبو عبدو... يا مدام لور... إنني واثق من النجاح.

بدأت الأمور بعد ذلك تتشابك بصورة مفجعة، اختفت مدام جوزفين، بادىء الأمر لم يهتم الكولونيل بالموضوع. لكنه، بعد اختفائها بثلاثة أيام، سألني الكولونيل عن بائع الحليب. قلت لا أعرفه. هاج وماج بائع الحليب لا تعرفينه. وصفعني. فوجئت، كدت أقع أرضاً. وقفت مذعورة: ماذا تريد من بائع الحليب؟ وصاح: بائع الحليب هذا خطف المدام يا سيدة لور. سوف أقتله. هنا، أصبح علي أن أجهر بالحقيقة، بائع الحليب يا سيدي لم يخطف المدام، هي التي خطفته واختفت معه.

استند الكولونيل إلى الحائط وهو يرتجف من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، كان يحدق نحوي مستغرباً متسائلاً في نظرات حمراء زائغة... ثم قال بصوتٍ حاول أن يكون هادئاً، لكنه خرج مرتجفاً ضعيفاً:

- لم أفهم... ماذا تقصدين؟

ابتعدت عنه إلى الوراء قليلاً، فقد بدا لي تلك

اللحظة، مثل بركان خمد، وسيعاود الانفجار، قلت مترددة:

- أقصد... إنها على علاقة مع بائع الحليب.

صمتُ للحظة، استشفُ من نظراته مدى ردة الفعل عنده ثم تابعت:

- هل كنت تصدق أنها كانت بحاجة إلى كل هذا الوقت من أجل تفصيل فستان؟...

وضع الكولونيل يده على جبينه، يمسح العرق الذي بدأ ينضح... وردد:

- يا الهي.

في الحقيقة، كنت في دخيلتي مسرورة، هل كان يعتقد أنه قيس وحده، وأنه قادر على جذب إمرأة شرقية بريئة، ولم يكن هناك من بلدي من هو قادر على الايقاع بزوجته؟... إنه بائع الحليب، ذلك الشاب الشاطر، الذي امتلك مدام جوزفين برجولته، بينما كان إياه يتساقط على قدمي امتثال، فلا ينال، بعد كل هذا الجهد، غير ملامسة أناملها.

وأحسست، كأن في عينيه قفزة ما لايذائي... كان علي أن أوقف الانفجار مهما كلف الأمر، فقد أدفع

ثمن ذلك حياتي ومحلي وشهرته. وأرمي بلحظات ما بنيته بسنوات، تابعت الحديث:

- أنت يا سيدي الكولونيل... ألم تدفع بها دفعاً للمجيء عندي كي يخلو لك الجو بامتثال؟.

هذه العبارة، كأنها كانت الطلقة الأخيرة التي سدت فوهة البركان إلى الأبد... بدا لي الكولونيل، وهو يستعيد هدوءه، كأنه طفل غاضب، إنتبه إلى الهاوية التي ينساق نحوها... تراخى على المقعد الوثير الذي إلى جانبه، وظل فترة طويلة يحدق بي دون أن ينبث بكلمة.

بعد لحظات، قام من مكانه، واتجه صوب النافذة، أشعل سيكارة. ثم التفت نحوي. قال مطأطىء الرأس:

- إذا كانت مع بائع الحليب، دون أن يمسها بأذى... فلا بد أن تعود... يا سيدة لور. يحق لها... أنا لم أقربها منذ زمن طويل... امتثال شغلتني عن كل شيء.

في المساء، عاد الكولونيل، وطلب حضور امتثال، كان عليها في هذا الوقت أن تذهب إلى بيتها.

همس بأذنها كلمات لم أفهمها. فوضعت على رأسها ملاءتها وخرجت خلفه، توجست خيفة، كان علي أن أمنع ذلك لو بدرت من امتثال حركة رفض ما. . . لكنها كانت سعيدة، وكانت راغبة في الذهاب معه.

صباح اليوم التالي -تتابع السيدة لور ما وسعتها المخيلة- عادت امتثال متعبة، في وجهها علائم السهر الطويل والفرح أيضاً. قالت لي: يجب أن تساعديني يا ست لور. أول مرة أنام خارج البيت. نعم. نمت عند الكولونيل. سقاني شراباً ودخت، ولم أعرف ماذا حدث، كل ما أعرفه أنني كنت سعيدة سعادة لا توصف. وجدت نفسي في الصباح عارية في الفراش إلى جانبه. كان هو أيضاً مثلي. كنت سعيدة، حتى تمنيت لو تنفصل الغرفة عن الأرض وتطير بنا بعيداً. عشت ما لم يخطر ببالي. عرفت لماذا خلقت المرأة ولماذا خلق الرجل. لقد اتحدت به اتحاداً أشبه بدمج الدم بالدم. كم كان رائعاً وجميلاً يا سيدتي. أحس الآن أنني بدأت أرى الدنيا. بدأت أحس بالصباح صباحاً، وبالليل ليلاً، ثمة نافذة انفتحت على النور. حياة جميلة هذه الحياة، ما كنت أعرف أنها جميلة إلى هذا الحد.

آه، كنت لم أفهم منها من قبل، إلا التعب،

والظلام، والأب السجين والأخ الأبله، الآن، يا سيدتي، عرفت كم إن لجسدي علي حقاً. هذا المخبوء وراء ملاءته السوداء. لقد أعطاني الكولونيل فرحاً كالنور، لم أدرك أنني عظيمة إلى هذا الحد، ومقدسة إلى هذا الحد، وجميلة إلى هذا الحد. أصارحك يا سيدتي، أنت دفعت بي إليه وأنا انسقت وراء عواطفي، لا أحملك وزراً بل أشكرك، هل يعيبون علي ذلك إذا صحت ملء صوتي أنني أحببته؟.

تساءل الضابط: أصحيح، مثل هذه البنت الخجول تقول هذا الكلام يا سيدة لور؟

أجابت السيدة لور:

كنت أستغرب، وأنا أمام امتثال، من أين لها هذا الكلام الجميل حقاً، كيف تتلفظ هذه العبارات النادرة التي لم أسمع مثلها قط... أهو الحب؟ أحقاً يفعل الحب مثل هذا الفعل...؟ ينقل امتثال من ضفة إلى ضفة كأنها طير بجناحيه الوهميين؟ أهكذا، تقف أمامي، تطلب مساعدتي، وتعترف بكل جرأة هذا الاعتراف الجميل المدهش. امتثال ابنة دمشق تعشق كولونيلاً فرنسياً.. امتثال من حي من أصعب أحياء دمشق

تقاليد، تتجرأ وتصيح أنها تحب كولونيلاً فرنسياً وأنها أعطته كل شيء؟!.

كنت أتساءل ذلك... وكنت أحياناً أتخيل من خلال نظراتها كل ما يعتمل في نفسها... بعد ذلك كيف كان علي مساعدتها؟ سألتها فأجابت: لا أدري، أول مرة في حياتي أغيب عن بيتنا ليلة كاملة. لا أنام في فراشي وفي بيتي كأنني معلقة بين الأرض والسماء، آه يا سيدة لور، لا أدري كيف عليك أن تساعديني... هل أهرب؟ هل أختبيء؟ هل تخبئيني عندك؟.

فكرت، وأنا خائفة، كيف يمكن أن أساعد امتثال... لكن الكذب في مثل هذه الحالة ليس حراماً... قلت لها: ستدعين أنك كنت مريضة، وأنك سقطت مغمياً عليك أثناء العمل فاضطررت للمبيت عندي.

هكذا، ببساطة، يا سيدي، خيل لي، أنني حللت المشكلة، ما كنت أعرف أنني دفعت بها إلى المقصلة، إلى خنجر أخيها الذي لم يسأل أحداً أين كانت. فقط، كما ذكروا لي ولك وللجميع، أن عبدو قال لأبيه وهو يزوره في السجن: امتثال لم تنم ليلة

البارحة في البيت يا أبي، قال له ببساطة: إذهب واذبحها يا ولد. أبو عبدو الذي أصدر هذا الحكم السريع ودون روية، لم يعرف هذه المرة أنه لم يكن عادلاً. كل ذنبها أنها أحبت. ولسوء حظها أنها أحبت كولونيلاً فرنسياً، ضابط احتلال في وقت كان قلب دمشق ينبض كرهاً للاحتلال.

وتتابع السيدة لور بشغف وكأنها تقرأ رواية في كتاب:

- الكولونيل أصيب بصدمة قاسية، ظل مذهولاً فترة طويلة عندما علم أن امتثال ذبحت كما تذبح الخراف. قال لي: عانيت من أزمة قاسية... لقد سعيت ونجحت وفزت بقرار الحاكم العسكري بإنزال عقوبة أبو عبدو من المؤبد إلى عشر سنوات... ولن تمضي أسابيع حتى يفرج عنه. لكن... ماذا أفعل الآن...؟ أعلي أن أحاكم أبو عبدو على طريقته هو... أقتله في الطريق، أطلق الرصاص عليه وهو يهم بالخروج من السجن؟ أم أسعى من جديد لالغاء قرار العفو وأتركه سجيناً مدى الحياة. كان باستطاعتي ذلك... وكان الحاكم العسكري سيقتنع مجدداً أن هذه جريمة. وأن الدافع اليها أبو عبدو نفسه... أم علي أن

أكون وفياً لعهدي لها بالسعي للافراج عنه. كانت مشغولة الفكر عليه، فنوبات الربو التي تلاحقه قد تقضي عليه في السجن، وهي تحبه، تحب شجاعته وفروسيته ونبله، تحب حكاياه. تحب أن تراه كل صباح، تصنع له الشاي والفطور قبل أن تسرع إلى بيتك لتتعلم مهنة الخياطة، كم كان عمرها عندما سجن أبوها؟ سأل الكولونيل. قلت عشر سنوات، بداية تفتحها على الحياة.

ويتساءل الكولونيل: آه... ما أسوأ ما حدث... ماذا أفعل بأخيها... عندكم شيء فظيع في المحاكم، ما تسمونه جريمة الشرف... لكن، لو كان هناك عدل، لكنت أول من يجب أن يحاكم... أنا قتلت امتثال يا سيدة لور. أنا انسقت وراء عواطفي وأغريتها. وأنا الذي قدتها إلى خنجر أخيها المجنون، كيف استطاع بكل صلافة وغلظة أن يذبح ذلك العنق الجميل الذي فيه كل براءات الأطفال والعصافير والغابات البكر والأعماق. سيحاكم عبدو قاض عربي وحسب قوانينكم سيجد القاضي ألف وسيلة لتخفيف الحكم عليه، إنه بنظرهم بطل، أخته كانت على علاقة بضابط فرنسي وقتلها، تماماً، كما فعل أبوه، عندما قتل

خائناً يهودياً. هكذا ستفسر الأمور. أما هي، امتثال الغالية، الجميلة، الرقيقة، التي كانت أشرف امرأة على الأرض، هاهي تموت في سبيل حبها، الحب الذي كانت لا تعرفه إلا من خلال حكايات أبيها، وقصصه. إلا من خلال ما ترويه الجارات عن أبناء الجيران. امتثال الحنون المدهشة، العذبة. ها هي تترك في صدري جرحاً لا يندمل. وها أنا يا سيدتي وحيد. وحيد، لا أملك حولاً ولا قوة، متهدم، مكسور كغصن يابس على ركبة القدر... أين جوزفين، من حقها أن تفعل ما فعلت... من حقها أن تذهب مع بائع الحليب إلى قريته وبيته الطيني وفرشه البسيط، وتترك كولونيلاً في الجيش الفرنسي. أعرف كل شيء. ولن أحاول استعادتها. ألم أفعل أنا مثلها. أغرق في امتثال التي أعادت إليّ روح الشباب وأشعلت عروقي المطفأة، وبها عدت ثلاثين سنة إلى الوراء.

والآن يا سيدتي، أرجوك، إذا رأيت جوزفين أطلبي منها أن تغفر لي، قولي لها أن تعيش حياتها... فليس أصدق من حب الشرق، قولي لها أن تسعد فتاها العربي ما وجدت إلى ذلك سبيلاً... لتتعبد في محرابه، وتحيا من أجل سعادتها وسعادته... فكما ضحت امتثال

بحياتها من أجلي، ضحت جوزفين بكل ماضيها وحضارة الغرب التي نشأت فيها وبكل مجد زوجها وبيتها، وبكل ما كان متاحاً لها، وذهبت إلى بائع الحليب تحيا معه في قريته، ووراء بقراته وغنماته لأنه منحها حباً عظيمًا، وأدفأ جسدها الذي لم يعرف فيّ إلا الثلج... أما أنا، يا سيدتي، ها أرحل مهزوماً، كنت ضابطاً في دولة منتصرة، أعود، وقد هزمني الشرق، هزمني بكل قيمه ومبادئه وأسلوبه في الحياة، وشتت قواي. لقد طلبت إحالتي على التقاعد، وطلبت إعادتي إلى فرنسا. وها أنا، أملك خصلة من شعر امتثال الأسود، أحمله كنزاً من دمشق لا يقدر بثمن، وإلى قريتي قرب نيس أمضي، أبني لامتثال في قلبي ذكرى لا تموت. أترك للأقدار كل شيء، واستسلم بعيداً على جناح شفرتي... ومع الصباح، كل صباح، أرى وجهها شمس الأفق، وفي الليل على وسادتي أحلامي وأشواقي وشجوني.

جاؤوا بعبدو إلى السجن، إلى نفس «القاووش» الذي فيه أبوه. تحلق عدد من المساجين حولهما، حتى نذير مؤجر الدراجات الذي يقضي حكمًا عشر سنوات لاعتدائه على صبي أراد اللوط به، نذير، هو الآخر، فيما بعد، روى ما حدث في السجن.

قبّل أبو عبدو ابنه من جبينه، وصاح به: عفارم يا عبدو قطعت الاصبع العايبة.

إنما عبدو، بعد ذلك، طوال شهور، كان يروي كل يوم نتفة مما حدث.

عادت امتثال إلى البيت مساء اليوم التالي لغيابها، كان عبدو بانتظارها، وصاح بها: «أين كنت ليلة البارحة؟ لماذا لم تأت إلى البيت؟» تصنعت امتثال التعب، وقالت بصوت واهن: «كنت مريضة،

فاضطررت للمبيت عند السيدة لور» صاح عبدو «عند السيدة لور، هذه التي فتحت بيتها للفرنسويين. والله من زمان كنت أتمنى أن أمنعك من الذهاب إليها. لكن لا أدري، في كل مرة أقول: أنت تتعلمين مهنة الخياطة، والبنت الشريفة تبقى شريفة، ولو عاشت في مستنقع» قالت امتثال: «أنت تعرف هذا جيداً» لكن عبدو، كما قال نذير، لم يدر ما الذي أحس به في دخيلته. أدرك أنها تكذب، فصاح: «على كل حال أنا أعرف أنك لم تكوني تلك الليلة عند لور... لقد رأوك في مكان آخر».

وبدت امتثال لعبدو كأنها ارتبكت، فضغط عليها أكثر قائلاً:

- والآن، سأقفل عليك هذا الباب، وأذهب إلى بيت السيدة لور أسألها... ومنها سأعرف الحقيقة.

قالت امتثال:

- لا بأس... إذهب واسألها.

أقفل عبدو باب الغرفة على أخته وخرج إلى الحي. ذهب إلى المقهى، تناول كأساً من الشاي، ثم عكف على التنبكجي أبو سمير واشترى قطعة حشيش.

ذهب إلى داخل المقبرة، لفها في سيكارة ودخنها حتى آخرها. ثم عاد إلى البيت. فتح الباب على امتثال وصفعها بقوة على وجهها صارخاً:

- يا عايبة... قالت لي السيدة لور أنك لم تبيتي ليلتك عندها، وهي كانت تعتقد أنك جئت إلى بيت أهلك. تكذبين علي. إعترفي أين كنت فلا أفعل لك شيئاً.

ازداد ارتباك امتثال، ثم قالت بصوت واهن ضعيف:

- لكنني كنت عندها والله.

صاح عبدو:

- وتقسمين بالله يا كاذبة.

ثم تقدم منها، وصفعها ثانية، وثالثة، ورابعة، حتى وقعت إلى الأرض. لفّ ضفيرتيها على يديه وأخذ بركلها بقدمه بشدة حتى أغمي عليها. خرج من الغرفة وأقفل بابها. تمشّى في الحي كثيراً، ثم خطرت بباله فكرة، روى لأبيه:

- لم أكن أحب أن أظلمها يا أبي، كان علي أن أعرف شيئاً هاماً، بعدئذٍ، كل شيء يهون.

هكذا قال عبدو، ثم إنه اندفع نحو بيت القابلة وداد، وطرق الباب منادياً عليها. أطلت من النافذة صائحة:

- ماذا في الأمر يا عبدو... هل من إمرأة تطلق؟.

قال عبدو:

- أريدك لأمر هام يا ست وداد.

قالت:

- إنتظر حتى أرتدي ملاءتي.

وهرولت السيدة وداد بقامتها القصيرة الممتلئة، وهي ملتفة بملاءتها المزمومة على خصرها إلى جانب عبدو. وما إن رأته يقودها إلى بيته، حتى صاحت به:

- خير إن شاء الله يا عبدو... ماذا في بيتكم؟

قال عبدو:

- تعالي... وفي الداخل أقول لك كل شيء...

في ساحة الدار، رفعت السيدة وداد منديلها الأسود عن وجهها وهمست:

- أنت مثل إبني يا عبدو، أنا سحبتك من بطن أمك، قل لي... ماذا بك؟.

ويروي عبدو لأبيه «وكنت أعرف يا أبي أن الست وداد كتومة، وأنها بنت حلال، لا تقدم على حرام، ولا تكذب. قلت لها: البارحة، أختي امتثال لم تنم في البيت، أريد منك أن تكشفي عليها... فهمت السيدة وداد كل شيء، قالت وأين هي، قلت لها فوق في الغرفة، قالت: هيا».

فوق.

كانت امتثال مرمية على الأرض تبكي. ولا تقوى على الحركة، عندما اقتربت منها الست وداد لم تقاومها، بل حاولت إبعاد وجهها عنها، إلا أنني صفعتها بشدة، فارتطم رأسها بالجدار وأغمي عليها. فتحت الست وداد ساقيها. ودست يدها في الداخل، وسرعان ما سحبت يدها وهي تشهق مذعورة:

- البارحة... البارحة بالذات صارت إمرأة... فقدت عذريتها البارحة... البارحة بالذات صارت امرأة يا عبدو.

صحت بالسيدة وداد: هيا إخرجي.

خرجت مسرعة وهي تتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، كانت تردد: من يوم ما دخل الفرنسويون البلد والأخلاق ساحت... الله يلعنهم.

ماذا كان علي أن أفعل هذه اللحظات يا أبي؟

فكرت كثيراً، هذه أختي، ولكن أي عار سوف تجره علينا إذا تركناها حرة، ربما تذهب إلى آخر وآخر وآخر حتى تفوح رائحتها في البلد. ويقولون بنت أبو عبدو الطويل، رجّال حي العقيبة عايبة، تذهب من رجال إلى رجال وتبيع جسدها... كل ذلك خطر ببالي يا أبي.

كنت قبل كل هذا قد سألتك في الصباح ماذا أفعل، وحمدت الله أنك أعطيتني الأمر بقتلها، فأنا أبغي رضاك، وأبغي أن تكون سمعتنا أنظف من ماء السماء. لكن ترددت والله، أحضرت سكينك الحادة، المخبأة في جيب شروالك الأسود، وقلت غسلاً للعار، إذبحها بهذه السكين بالذات، هذه السكين التي ذبحت وديع اليهودي الذي خان البلد... فلا فرق بين وديع خائن البلد وامتثال خائنة العائلة والحي. هكذا اقتربت منها، وشددت ضفيرتيها على قبضة يدي، ثم سحبتها حتى نام عنقها على فخذي، وذبحتها وأنا أبكي. امتثال

أختي يا أبي من لحمي ودمي. ولكن، ما باليد حيلة، أخطأت هي، أهانتك وأنت في السجن. وأنت منذ عشر سنوات وراء القضبان. باعت جسدها وما كان علي غير أن أحكم أيضاً، وأنفذ حكمك يا أبي. فذبحتها.

يذكر نذير أن وجه أبو عبدو ازداد تغضناً تلك اللحظات، كانت عيناه محمرتان، يدور سوادهما على وجهه كأنه يتأمل نفسه، وحاول مراراً أن يخبىء وجهه عن الحاضرين بباطن راحته. كان حزيناً. امتثال حبيبته الجميلة، مدللته التي أحبها حباً أنساه فقدان زوجته، تخونه على هذا الشكل المهين. ظل أبو عبدو حزيناً، روى فيما بعد أن حزنه لم يكن على مقتل امتثال، بل لأنها الحقت به عاراً لن يمحى.

وبعد أيام أُبلغ أبو عبدو بالعفو وبالافراج عنه، وبينما كان خارجاً من السجن، اقترب منه ضابط شاب وقال له: يا أبو عبدو... أريدك في مكتبي قليلاً... سأسلمك أمانة كلفت إيصالها لك. ثم ثمة حديث أريد البوح به.

وما سمعه أبو عبدو تلك اللحظات، رواه بأسى

إلى أكثر أصحابه، قال له الضابط الشاب: «إن الكولونيل جاك هو الذي سعى لإصدار عفو عنه. وإن الكولونيل قبل رحيله إلى فرنسا ترك له رسالة في ظرف مختوم».

ماذا كان في الرسالة؟

يقال بأن أبو عبدو قرأها على أكثر من رفيق له، كأنه بذلك يريد أن يعيد إلى سمعة امتثال نفحة من البطولة. كتب الكولونيل الرسالة باللغة الفرنسية، وكلف مساعده الذي يتقن العربية بترجمتها، ثم وضع النصين ضمن مغلف، وكلف ضابط السجن بإيصالها إلى أبو عبدو يوم يفرج عنه.

في الرسالة، التي رواها أيضاً، معظم الذين استمعوا إليها، ينبىء الكولنيل جاك أبو عبدو بأن حكمه على امتثال كان متسرعاً هذه المرة: «فلم يكن يهمها سوى الافراج عنك، كانت دائمًا تلح، وتبرر لي ما فعلت، إنك لم تقتل وديع اليهودي بسبب خلاف شخصي بينكما، بل لأن وديع خان الوطن... ولو حدث مثل ذلك في بلادكم، خائن فرنسي يخون بلده ماذا كنتم تفعلون به؟ بهذه البساطة طرحت علي السؤال، وبهذه البساطة اقتنعت بوجهة نظرها. وقد استمرت هذه

المحاولات لإقناعي بضرورة إعادة النظر بالحكم الصادر عليك أياماً وأسابيع... إلى أن اقتنعت، وحتى هذه اللحظة لم يكن قد جرى بيننا أي شيء. فهي انتصرت علي بتماسكها الأخلاقي، وبرفضها الدائم الاستسلام رغم أنني أغويتها كثيراً، وأفهمتها مراراً أنني لن أسعى لإخراجك من السجن، ما لم تستسلم... وكانت ترفض بإباء... وأحببتها، صدقني يا أبو عبدو، عمري ما أحببت إمرأة كما احببتها، أحببتها إلى حد قررت اعتناق الاسلام كي أطلب يدها منك... وهذا ما فعلته حقاً، إذهب إلى الشيخ محيى الدين في جامع المولوية واسأله... سترى أنني أعلنت أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله... ولم أكتفِ بالشهادتين، فقد سعيت بكل ما في قلبي من حب، كي يكون إيماني بالاسلام إيماناً صادقاً وحقيقياً، علمني الشيخ بضع آيات قرآنية، وعلمني الوضوء والصلوات الخمس، وتلا علي كثيراً من الأحاديث الشريفة، وأكرر أمامك يا سيدي أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، أكرر ألفاً وثلاثة آلاف وعشرة آلاف. وهي، امتثال الصادقة البريئة، دمشقية الشرق العظيمة، أدركت حقيقة مشاعري نحوها، فأحبتني مثلما أحببتها وأكثر، وتبادلنا العواطف الصادقة، حتى أنها أسمتني

أحمد، وصارت تناديني أحمد، وسررت كثيراً بهذا الاسم. أحمد ما أكبر الفرق بين أحمد وجاك. أي جاك هذا. صدقني يا أبو عبدو أنني صرت أترنم باسمي الجديد كأنني أترنم بموسيقى جميلة. هكذا، بكل بساطة تزوجنا بالسر، بانتظار أن تخرج أنت من السجن وأطلب يدها منك. ولم يكن ما حدث بعد ذلك جريمة تستحق عليها امتثال الذبح. لقد تبادلنا العواطف ليس من أجل الافراج عنك. قناعتي بالافراج عنك تمت قبل أن يحدث هذا بوقت طويل. أحببتها يا أبو عبدو وأحبتني... ومتى كان الحب حراماً تفصل بين الحبيبين السكين؟ أرادتني مسلمًا بكل ما لهذه الكلمة من معنى، كانت تمتحنني هل فعلت ذلك كي أنال منها؟ لكن بحدسها الأنثوي البريء أدركت أنني صادق... وأنني أسلمت عن إيمان وأنني أحبها حقاً وأريدها زوجة لي. وكنت أنتظر فرصة خروجك من السجن لأحقق هذه الأمنية». لولا تسرعك يا سيدي، لولا تسرعك بإصدار الحكم عليها. صحيح أن الخطأ الفاحش الذي ارتكبناه معاً وقع قبل ليلة واحدة فقط. لكن، لا أنت، ولا ابنك اتحتما لنا الفرصة لتصحيح هذا الخطأ بالزواج على سنة الله ورسوله.

يا أبو عبدو...

آسف إذ أكتب لك هذه الرسالة القصيرة قبل رحيلي، لكن يجب أن أكرر أمامك الآن إن الشهيدة الغالية هي التي أطلقت سراحك من السجن. ومن أجلها ولها أشهد أمامك مرة أخرى أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله... وسأسعى منذ اليوم أن أكون مسلمًا حقيقياً كي أكون وفياً لذكراها. كل ما أتمناه منك هذه اللحظات أن تعفو عنها، وأن ترفع عن صدرك ما يمكن أن تسميه عاراً. هذه اللحظة أتمنى أن أعطيك حياتي مقابل أن تتخذ مثل هذا القرار. صدقني، إذا كان موتي يبرىء امتثال، فأنا على استعداد للقدوم إليك لتذبحني بنفس السكين التي ذُبحت بها... امتثال إمرأة نقية وشريفة ونظيفة يا أبو عبدو... قتلت ظلمًا... وأنا الآن ميت لولا أن ذكراها تطفح ووفائي لها لا يموت.

المخلص الكولونيل أحمد

أذكر، بعد خروج أبو عبدو من السجن، الاحتفالات التي أقيمت في الحي، والولائم، والعزائم، والعراضات التي كانت تتقدم من الأحياء الأخرى، إلى حينا العقيبة، ترحيباً بالافراج عنه.

وذات يوم، رأيت ألماس يأخذ من الفرن خبزاً، ومن بائع الخضار بندورة وخياراً ومن بائع الفواكه تفاحاً، ومن البقال بيضاً مشوياً وجبنة ولبنة، ولحظة خروجه من الحي، أسرعت مخاطباً إياه:

- مرحباً...

رحّب ألماس بي كثيراً، فرجوته أن يسمح لي بحمل الأغراض التي بين يديه، فربت على كتفي ثم أعطاني بعض الأكياس، فانطلقت خلفه، وعندما اقترب من أحد البيوت، وقف تحت النافذة وراح يصرخ:

- أبو عبدو. . . أبو عبدو.

أطل أبو عبدو من النافذة، ثم قال:

- إنتظر. . . أنا قادم.

وعندما فتح أبو عبدو باب بيته، وخرج نحونا، أخذه ألماس بين ذراعيه وقبله من شاربيه ثم قال له:

- الحمد لله على السلامة أبو عبدو. . . يا أهلاً يا أهلاً.

ثم اعتذر منه لأنه لم يأتِ إلى الحي أيام احتفالاته بخروجه من السجن لأنه كان يعرف أن الشرطة كانت تراقب الحي في تلك الأيام، لاعتقادها أن ألماس لا بد أن يأتي للسلام على أبو عبدو، كان يدرك ذلك، ولذلك، فوت عليهم فرصة القاء القبض عليه في هذه الاحتفالات.

أبو عبدو بارك ذلك، وأثنى على ذكاء ألماس الذي لا شك فيه.

قال ألماس:

- هيا بنا يا أبو عبدو.

- إلى أين يا ألماس؟

- إلى البرية، أنا داعيك لنتناول كأساً. ولو يا أبو عبدو... والله اشتقنا.

إبتسم أبو عبدو، ومضيا معاً، فيما حرصت أنا أن أكون إلى جانبهما تماماً، وكنت أتمنى لو يراني أحد أصدقائي، وأنا أمشي إلى جانب ألماس وصديقه أبو عبدو الذي لا يقل شهرة وشجاعة عنه.

وبعد أن اجتزنا الشارع، ودخلنا طريق البساتين القريبة، طلب مني ألماس أن أعود إلى بيتي. وأخذ من يدي الأكياس التي كنت أحملها وتظاهرت أنني اتجهت صوب البيت، ولكن سرعان ما استدرت وأخذت أتعقبهما إلى أن دخلا أحد البساتين. فاستقبلهما صاحبه استقبالاً حاراً.

قال له ألماس:

- أين نجلس يا أبو جاسم؟

قال أبو جاسم:

- قرب النهر... يا أهلاً بالضيوف... يا أهلاً... والله عيب يا رجال تجلب معك كل هذه الأشياء... عيب.

قال ألماس:

- لا بأس... لا بأس، ولكن، إرسل لنا مع ابنك جاسم ماء وكأسين.

- تكرموا... تكرموا... على العين والرأس.

وخفت أن يراني ألماس، فيصيبني مكروه... ألم يطلب مني العودة إلى البيت؟ ودخلت إلى البستان المقابل، وتخفيت وراء شجرة حيث يفصلني عنها النهر، وصرت أراقبهما، متمنياً لو كنت بعمرهما أتحدث معهما وأشرب معهما وأدخل السجن وأخرج معهما... وحلمت أن أكون في المستقبل مثلهما. لي رفيق يشبه أبو عبدو وأن أكون أنا شبيهاً بألماس.

أخذ الرجلان يشربان معاً، وكان كل منهما قد جلس قبالة الآخر يتكىء على ساعده، ويفتل شاربيه بين الحين والآخر.

كانا أحياناً يصمتان فترة ليست قصيرة، ثم يعاودان الحديث، فيهنىء ألماس أبو عبدو على خروجه من السجن، ويرد عليه أبو عبدو بالشكر... ويتمنى له أن لا يقع في قبضة الشرطة.

مضت لحظات صمت، ثم قال ألماس:

- يا أبو عبدو. . . كنت رجلاً عندما طلبت من ابنك ذبح تلك السافلة.

أجاب أبو عبدو:

- ولو يا ألماس، نحن رجال، والشرف لا يغسله إلا الدم.

- كاسك.

- كاسك.

عادا إلى صمتهما. . .

مضت لحظات أخرى، قبل أن يعود ألماس ويسأل من جديد:

- كيف تخلّصت من هذا العار؟

- جاء ابني عبدو يزورني في السجن، وهناك قال لي أن امتثال لم تبت في البيت ليلة كاملة. فقلت له: إياك أن تجيئني الاسبوع القادم إلا وتكون قطعت رقبتها. وفي الأسبوع التالي أدخلوا عبدو إلى نفس القاووش الذي كنا فيه.

- والله عبدو كان رجلاً.

- يا أخي. . الاصبع العايبة يجب قطعها.

- ومتى ستكون المحاكمة؟

- يوم أمس كنت عند المحامي، وقال لي أن عبدو لن يسجن أكثر من عام أو عامين... وجدوا السافلة ثيباً يا ألماس.

- الله يلعنها.

- الحمد لله غسلنا العار.

صمت أبو عبدو هنيهة، ثم ارتشف بعضاً من كأسه، وأردف:

- وأنت يا ألماس... الحمد لله لم تتزوج.

- لو تزوجت وجاءتني بنت لما فعلت مثل بنتك... كنت تدللها يا أبو عبدو... كنت تتركها تخرج وتصدقها أنها تعمل عند خياطة بوابة الصالحية لور. البنت من ضلع الشيطان يا أبو عبدو من ضلع الشيطان. كانت رجال العرب يدفنوها في التراب وهي حية.

أخذ أبو عبدو كأسه وشرب ما تبقى فيه دفعة واحدة، ثم بدّل من قعدته، فجلس القرفصاء، قبالة ألماس. فعل ألماس نفس الشيء. شرب ما تبقى من كأسه ثم جلس قبالة أبو عبدو. كان ألماس يداعب

بأنامله طرف شاربيه، فيما رفع أبو عبدو الطربوش عن رأسه وراح يمسح صلعته براحة يده.

كانت الشمس قد انتصبت في كبد السماء، فيما كان العرق ينضح من وجهي الرجلين.

قال أبو عبدو فجأة:

- يا ألماس. البنت ماتت، ذبحها أخوها من الوريد إلى الوريد... فلماذا الشماتة؟

- ألماس لا يشمت يا أبو عبدو... ألماس لم يتزوج حتى لا ينجب بناتاً. البنت عار على أبيها، ستظل بنتك عالقة في رقبتك، لطختك بالعار يا أبو عبدو. من ينس أنها كانت تلك ابنتك، وأنها كانت تنام مع الكولونيل الفرنسي وأنت في السجن.

إنتصب أبو عبدو واقفاً وارتد إلى الوراء، ثم وضع يده على جبينه وصاح:

- ألماس... إخرس.

ظل ألماس هادئاً، فيما كان يردد:

- إجلس يا أبو عبدو... إجلس... واقلب ورقة.

صاح أبو عبدو بغضب:

- قلت لك إخرس.

فيما أجاب ألماس بنفس الهدوء:

- يا أبو عبدو... إلعن الشيطان... إجلس وخذ كأسك.

ظل أبو عبدو غاضباً والشرر يتطاير من عينيه، ثم صاح:

- ألماس... حان وقت قتلك.

عندئذٍ انتصب ألماس مثل الرمح، وارتد إلى الوراء خطوتين، وفي هذه اللحظة لمعت سكين أبو عبدو تحت وهج الشمس، وسرعان ما سحب الماس سكينه من وسطه صارخاً:

- أبو عبدو... إعتبر نفسك ميتاً.

أصابني هلع شديد، والتصقت بشجرة المشمش وأنا أرتجف. إحترت ماذا أفعل؟ هل أركض طالباً النجدة من صاحب البستان أو من غيره؟ هل أركض صوب الشارع وأستدعي الشرطة؟ لكن، لو فعلت ذلك، لفاتني أن أرى بأم عيني كيف يقاتل

كل من الرجلين. . . وأنا الذي انتظرت مثل هذه اللحظات بفارغ الصبر.

قفز أبو عبدو في وجه ألماس صارخاً بحدة:

- خذ

وتفجر الدم من كتف ألماس، وبمثل البرق، رأيت سكين ألماس تتوقد كالشعاع وتلامس جبهة أبو عبدو.

مسح أبو عبدو جبهته بكم سترته السوداء وتراجع إلى الوراء. بدا لي كأنه سيهرب، لكن ألماس تعقبه، وفجأة، ارتد أبو عبدو نحو ألماس صارخاً:

- خذ

وفي لحظة، لا تتجاوز خفقة قلب، رأيت سكين ألماس كأنها برق يشتعل من كتف أبو عبدو الأيمن حتى خاصرته اليسرى، لكن سكين أبو عبدو تداخلت بين أيديهما في بطن ألماس.

ارتد الرجلان عن بعضهما قليلاً إلى الوراء، ثم عادا وتلاحما.

ازددت خوفاً، وحاولت أن أركض، أو أصرخ، لكنني فشلت، فدفنت وجهي بين راحتي، فيما كانت صرخات الرجلين لا تردد سوى كلمة واحدة:

- خذ

- خذ

بدأ صوت الرجلين يخفتان. حاولت أن أفتح عيني جيداً. رأيتهما قد تباطأت حركاتهما. إلا أن أحداً منهما لم يصرخ كلمة ألم. كانا هذه المرة أكثر قرباً. بل كانا متلاحمين. وكانت يد كل منهما قد ضعفت، إلا أن قبضتيهما كانتا مطبقتين على سكينيهما بشراسة وقسوة.

حاولت من جديد أن أصرخ، فخانتني قواي، كان كل منهما يستند على الآخر بيده اليسرى، فيما كانا يتطاعنان هذه المرة دون أن يصدر عن أحد منهما أي صوت.

صرخت مرة أخرى: عمو ألماس. عمو أبو عبدو. عمو أبو عبدو... لكن صرخاتي كانت تذهب هباء كأنها صرخة في برية.

كان الرجلان قد أصبحا كتلتين من اللحم والدم، يمزقان بعضهما بعضاً، كأنهما سكينان تتطاحنان، أو كتلتان من الفولاذ تصطدمان.

في هذه اللحظة، شد نظري مشهداً لم أر مثله في حياتي قط.

خارت قوى الرجلين، فتباعدا عن بعضهما ببطء شديد. ثم سقطت سكين كل منهما إلى الأرض. رفع كل منهما رأسه نحو الآخر بصعوبة. ولقد لمحت أن نظراتهما قد تلاقتا. وهنا استدار كل واحد إلى الوراء. مشى ألماس خطوتين وسقط على سياج البستان الذي يمتد على طول ضفة النهر. ولم يعد يصدر عنه أي صوت. أما أبو عبدو، فقط سقط بعد مسيرة عدة خطوات فوق روث الدواب وراح يصدر عنه شخير حاد.

كان وجه ألماس قد تشابك مع حديد السياج، وبدا لي مستسلمًا بمرارة، كنت أرتجف كأرنب خائف. وحاولت الوقوف على قدمي، ثم رحت أعدو وأنا أصرخ: مات ألماس... مات ألماس... ألماس قُتل...

لا أدري كيف سقطت وغبت عن الوعي، وعندما صحوت وجدت أمي وأبي إلى جانبي، وكانت أول عبارة نطقت بها أمام أبي: لقد قتلا بعضهما... ألماس وأبو عبدو... قتلا بعضهما.

قال أبي وهو يمسح جبيني براحته:

- ألماس مات... أبو عبدو حالته خطرة... لم يمت بعد.

أذكر أنني ظللت طريح الفراش فترة طويلة، ولقد تم التحقيق معي. فرويت لهم ما رأيته وما سمعته من حوار بين الرجلين.

قال لي أبي فيما بعد أن أبو عبدو قد أنقذ... وأنه حكم بالسجن سنتين. وتساءلت عن سبب هذه المدة القصيرة، فقال لي أبي: ألماس من أصحاب السوابق يا بني... وهو مطلوب في أكثر من جريمة قتل، والحكومة تريد التخلص دائمًا من أصحاب السوابق. كما إن القاضي اعتبر أن الرجلين في حالة دفاع عن النفس.

ذلك الحين، تساءلت كيف لم يمت أبو عبدو كما مات ألماس؟ وظل السؤال عالقاً في ذهني فترة طويلة من الزمن.

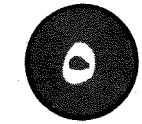

كان أبو عبدو قد خرج من السجن، إلا أنني لم أحاول في يوم من الأيام أن أضع عيني في عينيه. كنت حاقداً عليه. وكنت أتصور نفسي ذات يوم أنني سأثأر لألماس، سأقتل أبو عبدو، سأمزقه بسكيني الحادة إرباً إرباً.

وكبرت.

وكبر أبو عبدو، أصبح شيخاً هرماً، يبيع الذرة المسلوقة إلى جانب مسجد التوبة في الحي. لم أعد ذلك الحاقد عليه، ولكنني كنت أحاول اللقاء به في مناسبات عدة لأسأله عن ذلك اليوم الرهيب. فاكتشفت أن أبو عبدو قد أصبح منذ مصرع ألماس منطوياً على نفسه، بل لم يعد يأخذ «الخوة» من أهل الحي، كما كان يفعل مع ألماس أيام زمان. ولقد سمعت أكثر من مرة أن حزن

أبو عبدو كان أثقل على كاهله من صخور الجبال، فهو قتل أحب صديق إليه، وقيل أيضاً أن أبو عبدو لم يعد يقترب الخمرة منذ ذلك الحين.

وكان ذات يوم أن صمّمتُ سؤال أبو عبدو. كان الوقت بعد الغروب، لم يكن في وعاء الذرة، سوى بضعة عرانيس، وكان أبو عبدو قد أسند رأسه إلى جدار المسجد، وراح يدخن لفافة تبغ ويلاحق بعينيه دخانها المتصاعد، اقتربت منه. ألقيت عليه التحية، لم يتذكرني بادىء ذي بدء. فقلت له:

- أنا الذي شهدت ذات يوم مصرع ألماس.

حدق بي قليلاً ثم قال:

- تذكرت... تذكرت... أنت كنت على الضفة الأخرى... أنت رأيت كل شيء.

قلت:

- أنا... أجل... أنا.

عاد أبو عبدو إلى الصمت قليلاً، ثم التفت نحوي، كانت عيناه دامعتين، وقال بصوت مبحوح:

- لقد كان ألماس أخي يا بني... كان أخي...!

فسألته:

- كيف قتلته إذن؟

قال بكلمات متقطعة:

- قتلته... أي والله... قتلته. كان يجب أن أموت معه. لكن الأعمار بيد الله يا بني، يا ليتني مت معه، يا ليت... مات ألماس وتركني أتعذب. أتعرف يا بني، لم يكن يريد لي الموت... لم يقصد قتلي، كان واعياً ما يفعل... لم يكن يطعنني عميقاً، كان يداعبني بسكينه، كل جراحي لم تكن خطرة. كان يضربني ضربات سطحية، فيما كنت أنا، أعمق له الطعنات، كنت أخافه، فصرت أطعنه طعنات جبانة... أما هو فكان واعياً، كان يمزح معي... حتى أن جراحي، أتصدق، برئت منها بعد أسبوعين... بعد أسبوعين فقط. أما طعناتي أنا... طعناتي أنا كانت مميتة. يا ليت كسرت يدي ولم أطعنه كل تلك الطعنات.

بعد لحظات، صمت أبو عبدو، كان بعض أصحابه قد تجمعوا حولنا، قال له أحدهم:

أبو عبدو كفى حزناً... تلك كانت مشيئة الله.

رفع أبو عبدو رأسه، ثم أشار نحوي قائلاً:

- هذا الشاب كان هناك، هذا الشاب رأى كل شيء. ألماس كان يعيرني بابنتي رغم أن عبدو ذبحها. لكن، والله، لم أرد قتله... لعن الله العرق. والله كنت أحبه. كان مثل أخي.

هنا، آثرت أن أنسحب، تاركاً أبو عبدو يتحدث إلى أصحابه، ولعلي في تلك الهنيهات أدركت معنى النظرة التي تبادلها كل منهما عندما تلاقت أعينهما في ذلك اليوم المشؤوم.

تمت ٨١/٥/٢٢

للكاتب

القصة القصيرة

١ - **الحزن في كل مكان**. دار الثقافة، دمشق، ١٩٦٠.

٢ - **العالم يغرق** (الطبعة الأولى). دار ابن زيدون، دمشق، ١٩٦٣.
(الطبعة الثانية). دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٨٠.

٣ - **العصافير** (الطبعة الأولى). الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٧٤.
(الطبعة الثانية). دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٨.
(الطبعة الثالثة) دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٠.

٤ - **الرجال الخطرون** (الطبعة الأولى). دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٩.

الشعر

١ - **جراح**. كتاب الشعلة، دمشق، ١٩٦١.

٢ - **لغة الحب**. دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٦.

٣ - **أنت الحبيبة وأنا العاشق**. دار المسيرة، بيروت، ١٩٧٨.

قصص الأطفال

١ - **العصافير تبحث عن وطن** (١٢ قصة). دار المسيرة، بيروت، ١٩٧٨.

٢ - **الحطاب وشجرة الأرز** (قصة ملونة). دار المسيرة، بيروت، ١٩٨٠.

٣ - **الأفعى والولد السارق** (قصة ملونة). دار المسيرة، بيروت، ١٩٨٠.

٤ - **الصياد الصغير والحمامة البيضاء** (قصة ملونة). دار المسيرة، بيروت، ١٩٨٠.

٥ - **طائرات من فولاذ طائرات من ورق** (قصة ملونة). دار المسيرة، بيروت، ١٩٨٠.

٦ - **الزهرة الصغيرة** (قصة ملوّنة). دار المسيرة، بيروت، ١٩٨١.

٧ - **البلبل الجميل** (قصة ملونة). دار المسيرة، بيروت، ١٩٨١.

٨ - **الفيل الهرم** (قصة ملونة). دار المسيرة، بيروت، ١٩٨١.

٩ - **الدجاجة والصوص** (قصة ملونة). دار المسيرة، بيروت، ١٩٨١.

١٠- **محمود والمسدس** (قصة ملونة). دار المسيرة، بيروت، ١٩٨١.

١١- **الغيمة البيضاء** (قصة ملونة). دار المسيرة، بيروت، ١٩٨١.

١٢- **صباح مشرق** (قصة ملونة). دار المسيرة، بيروت، ١٩٨١.

١٣- **ميسون تحلم** (قصة ملونة). دار المسيرة، بيروت، ١٩٨١.

الرواية:

١ - **الممر**. منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٧٨.

٢ - **مصرع ألماس**. الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨١.

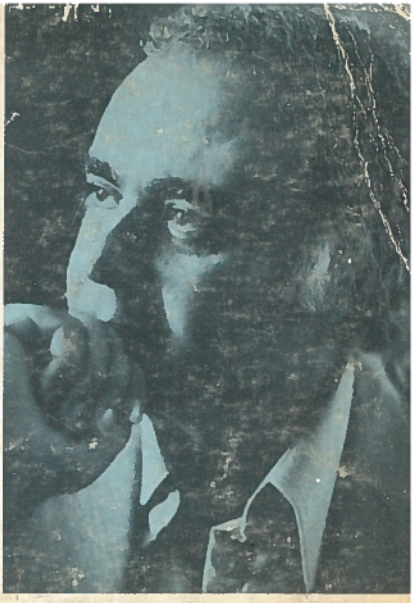

ياسين رفاعيّة

الاهلية للنشر والتوزيع

مصرع الماس

نحن مع «مصرع الماس» لسنا في رواية حديثة فقط، بل في ملحمة شعبية أيضاً، يتوالى أبطالها منذ عنترة بن شداد إلى اليوم. الرجال يتحلون بشهامة وشجاعة ورجولة تجعل من كل واحد فيهم حارساً للأخلاق وحاكماً ينفذ مشيئته مهما جرت عليه أحكامه من مصائب.

أما النساء فهن - كما في ملحمة شعبية منذ عبلة بنت مالك الى اليوم - فاتنات غاويات عاشقات يندفعن بغريزتهن الى الموت ذبحاً، كما تتهاوى الفراشات أمام المصباح.

هذه العدالة البدائية الغريبة تنتحر مرتين عبر زوج عاجز يحب زوجته الى حد أنه يقبل بخيانتها له وينتحر حين تذبح، وعبر أب يأمر بقتل ابنته العاشقة ثم يقتل صديقه حسرة وندامة.

إن ياسين رفاعية يقدم لنا في هذه الرواية جواً أسطوريا وواقعياً، عابقاً بالجنس والجريمة والحب المكتوم - جواً مختلفاً تمام الاختلاف عما صوره في روايته الجميلة السابقة «الممر».

محي الدين صبحي

الثمن : ١٠ ل.ل.
او ما يعادلها